قيم السلوك مع الله

عند

ابن قيم الجوزية

إعداد

الأستاذ الدكتور

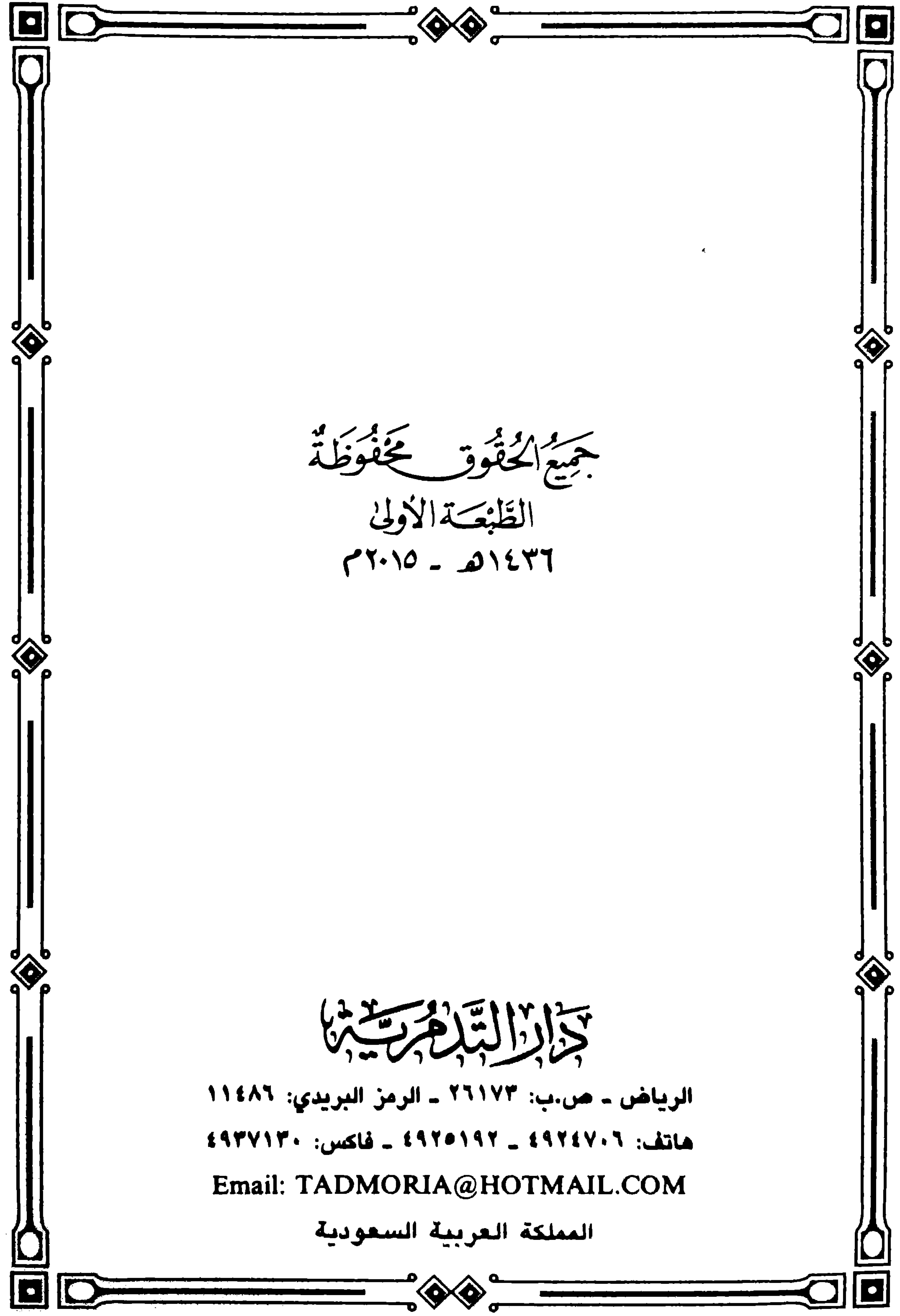
مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي

أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية الشريعة بالرياض

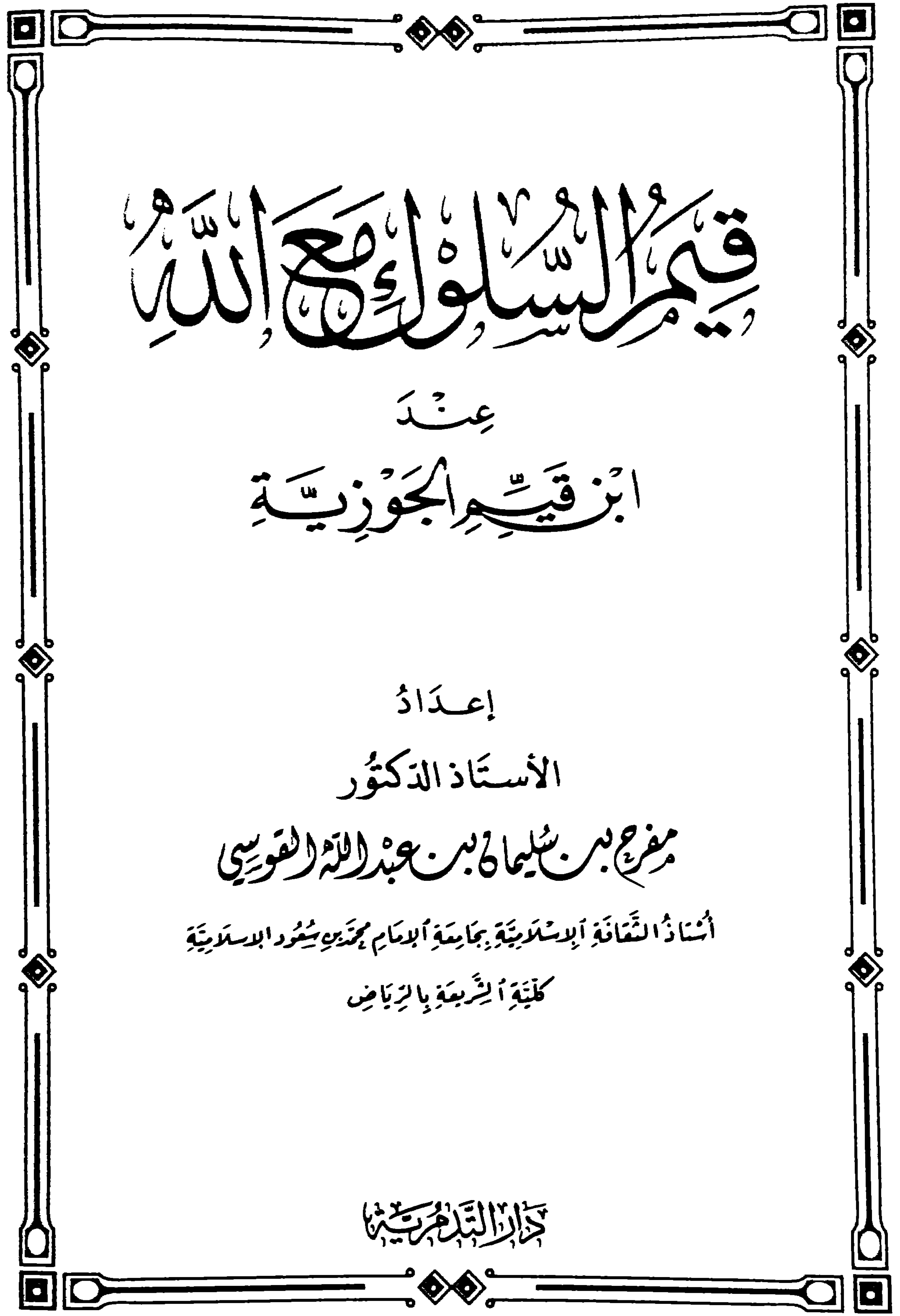
دار التدمرية


قيم السلوك مع الله
عند
ابن قيم الجوزية



الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار التدمرية
الرياض - ص.ب: ٢٦١٧٣ - الرمز البريدي: ١١٤٨٦
هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦ - ٤٩٢٥١٩٢ - فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
Email: TADMORIA@HOTMAIL.COM
المملكة العربية السعودية



قيم السلوك مع الله

عند

ابن قيم الجوزية

إعداد

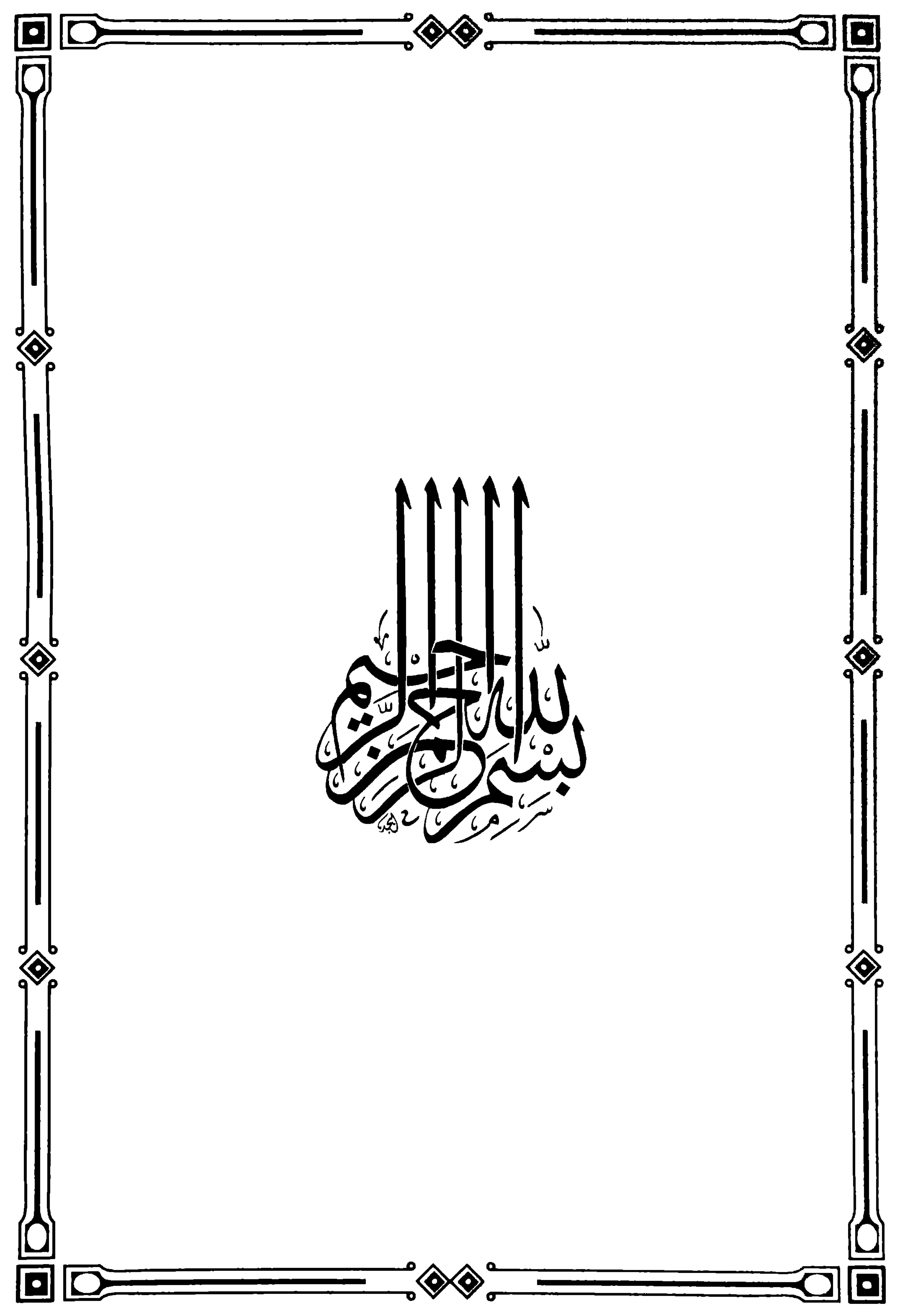
الأستاذ الدكتور

مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي

أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية الشريعة بالرياض

دار التدمرية


بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[3].

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، الـذي بلـغ الرسالة وأدى الأمانة حتى فتح الله به قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذاناً صماً، وعلى آله وصحبه الذين تولوا أمانة البلاغ من بعده .

وبعد :

تعد " قيم السلوك مع الله " من أهم القضايا السـلوكية العقديـة خاض

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ – ٧١.

فيها كثير من أصحاب التصوف البدعي[1]، فانحرفوا بها عن المنـــهج الصـــحيح الذي جاء به الإسلام .

ويُعد الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – من رواد المدرسة الســـلفية في دراسة هذه القضية ومعالجتها وإيضاح حدودها وتحديد معالمها وفـــق منـــهج الإسلام.

ويهدف هذا البحث إلى استجلاء موقف ابن القيم رحمه الله مـــن هـــذه القضية، من خلال التتبع الدقيق لما أورده من مسائل كثيرة تتعلق بهذه القضية في كتبه المتعددة، أمثال: مدارج السالكين، وطريق الهجرتين، والفوائد، وروضـــة المحبين، وعدة الصابرين، والوابل الصيب، وإغاثة اللهفان، والرسالة التبوكيـــة، وذلك إسهاماً مني :

١- في إيضاح معالم الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يســـلكه المســـلم في سلوكه مع الله تعالى وكيفية عبادته له سبحانه.

٢- وفي التحذير من المزالق الفكرية والسلوكية التي انحدر إليها كـــثير ممـــن جهلوا منهج الإسلام الصحيح وتأثروا بأصحاب الأفكار والمناهج المنحرفة، قياماً بحق الأمانة في العلم وواجب النصيحة في الدين.

---

(١) التصوف البدعي: هو تصوف الفرق الصوفية التي انحرفت عن المنهج الحق، ومزجـــت التصـــوف بعلوم اليونان وبالتراث الهندي والفارسي وبالديانات الأخرى كالنصرانية، فمزجت التصوف بهذه العناصر الأجنبية المتباينة في فلسفة ظاهرها إسلامي وباطنها غير إسلامي.

وفي مقابل التصوف البدعي: السلوك الشرعي الذي سلكه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن اقتفى أثرهم ونهج نهجهم من العارفين بالله المقبلين عليه والمجتهدين في العبادة والمعرضين عن زخرف الدنيا وزينتها والزاهدين فيما يُقبل عليه الناس عادة من لذة وجاه ومال.

الدراسات السابقة:

كتب عن الشيخ ابن القيم – رحمه الله – العديد من الباحثين والدارسين في كتب ورسائل جامعية، وجل هذه الدراسات إما أن تتجه إلى الحديث عن سيرته الذاتية ومؤلفاته وجوانب شخصيته، أمثال: كتاب (ابن قيم الجوزية) لمحمد مسلم الغنيمي، وكتاب (ابن قيم الجوزية، حياته آثاره، موارده) للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد. وإما أن تتجه إلى الحديث عن موقفه من الفرق وقضايا العقيدة عامة، أمثال: رسالة (موقف ابن القيم من بعض الفرق) لعواد بن عبد الله المقنف، ورسالة (ابن القيم وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف) لعبد الله محمد جار النبي، ورسالة (منهج ابن القيم في تقرير التوحيد) لآمال بنت عبد العزيز العمرو. وإما أن تتجه إلى الحديث عن جهوده في خدمة السنة النبوية، أمثال: رسالة (ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية) لجمال محمد عبد الحميد، وكتاب (الإمام ابن القيم وجهوده في الحديث) لحسين محمد السيد. وإما أن تتحدث عنه في مجال التفسير، أمثال: كتاب (منهج ابن القيم في التفسير) للشيخ محمد السنباطي، ورسالة (ابن القيم وآثاره في التفسير) لقاسم ابن أحمد القثردي. وإما أن تتحدث عنه في مجال الفقه، أمثال: رسالة (الحدود والتعزيرات عند ابن القيم) للشيخ بكر أبو زيد، ورسالة (اختيارات ابن القيم الفقهية في المسائل الخلافية في العبادات) لعبد العزيز الغامدي. وإما أن تتحدث عنه في مجال أصول الفقه، أمثال: رسالة (ابن قيم الجوزية ومواقفه الأصولية) لإبراهيم الكندي، وإما أن تتحدث عنه في مجال الدعوة والحسبة، أمثال: رسالة (منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله) لأحمد الخلف، ورسالة (الحسبة عند ابن

القيم) لمحمد عوض قرين. وإما تتحدث عنه في المجال التربوي، أمثال: كتاب (الفكر التربوي عند ابن القيم) للدكتور حسن الحجاجي. وأما أن تتحدث عنه في مجال النحو واللغة، أمثال: كتاب (الإمام ابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية) لأيمن عبد الرزاق الشوا.

و لم أجد من بين هؤلاء الباحثين من أفرد دراسة خاصة عن قيم السلوك مع الله عند ابن القيم ، رغم أهمية هذه الدراسة ، وتميزه – رحمه الله – في هذا الجانب عن غيره من علماء الأمة وسلفها الصالح .

حدود البحث:

ينحصر البحث في دراسة المسائل التالية :

١- حياة ابن القيم من حيث بيان : عصره، واسمه، ونسبه، ومولده، وتحصيله العلمي، وعقيدته ومذهبه، وأخلاقه وعبادته، وأعماله، ومحنته، ووفاته.

٢- مفهوم قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

٣- قيم السلوك أو منازل السير إلى الله تعالى عند ابن القيم .

٤- ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

٥- مصادر قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من : مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة .

أما المقدمة : فتشتمل على ما يلي :

١- أهمية موضوع البحث وأهدافه .

٢- الدراسات السابقة .

٣- حدود البحث .

٤- خطة البحث .

٥- منهج البحث .

وأما التمهيد: فهو ترجمة موجزة للإمام ابن قيم الجوزية .

ويشتمل على أمرين :

الأول: عصر ابن قيم الجوزية .

الثاني: حياته .

وأما الفصل الأول: فهو في قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

ويتكون من توطئة وثلاثة عشر مبحثاً :

التوطئة : في مفهوم قيم السلوك مع الله عند ابن القيم.

المبحث الأول: التوبة.

المبحث الثاني: الإنابة.

المبحث الثالث: الخوف.

المبحث الرابع: الزهد.

المبحث الخامس: الرجاء.

المبحث السادس: المراقبة.

المبحث السابع: الإخلاص.

المبحث الثامن: الاستقامة.

المبحث التاسع: التوكل.

المبحث العاشر: الصبر.

المبحث الحادي عشر: الصدق.

المبحث الثاني عشر: الذكر.

المبحث الثالث عشر: المحبة.

وأما الفصل الثاني: فهو في ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

ويتكون من سبعة مباحث :

المبحث الأول: الإيمان بالله تعالى.

المبحث الثاني: العبودية الخالصة لله تعالى.

المبحث الثالث: الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما.

المبحث الرابع: متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به.

المبحث الخامس: تعلم العلم الشرعي.

المبحث السادس: الالتزام بأداء التكاليف الشرعية.

المبحث السابع: اجتناب الذنوب والمعاصي.

وأما الفصل الثالث: فهو في مصادر قيم السلوك مع الله عند ابن القيم .

ويتكون من ستة مباحث :

المبحث الأول: القرآن الكريم.

المبحث الثاني: السنة النبوية.

المبحث الثالث: الصحابة رضوان الله عليهم.

المبحث الرابع: الزهاد والمتصوفة الأوائل.

المبحث الخامس: الشيخ أبو إسماعيل الهروي.

المبحث السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية.

وأما الخاتمة: ففيها رصد لأبرز نتائج البحث العلمية.

منهج البحث:

تقتضي طبيعة هذه الدراسة الجمع بين المنهج الاستنباطي والمنهج التحليلي الوصفي، وذلك بالتتبع الدقيق والبحث والتنقيب عن آراء ابن القيم المتفرقة في كتبه ورسائله الكثيرة والمتعددة، وذلك في المسائل والموضوعات محل الدراسة، ثم الاجتهاد في دراستها وتحليلها وتصنيفها وردها إلى العناصر المكونة لها لاستخلاص النتائج العلمية منها.

مع عنايتي بما يلي :

١-ترقيم الآيات القرآنية وبيان سورها.

٢-تخريج الأحاديث النبوية وبيان ما ذكره أهل الشأن في درجتها إذا لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، فإن كانت كذلك اكتفيتُ حينئذ بتخريجهما.

٣-الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في البحث ممن لهم علاقة وثيقة بموضوعه ، عدا المشهورين منهم، ككبار الصحابة والأئمة الأربعة.

٤-ذكر البيانات الكاملة لكل مصدر أو مرجع في الحاشية عند أول وروده في البحث، من حيث بيان: عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، واسم محققه إن كان محققاً، وعدد الطبعة، وتاريخها، واسم الناشر، ومكان النشر.

٥-تزويد البحث بفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

٦-أما بالنسبة للنقول والإحالات في الحواشي فهي على النحو التالي :

أ) إذا تصرفتُ في النص المنقول تصرفاً يسيراً أوردته بين قوسي تنصيص وأشرتُ في الحاشية إلى أن النقل كان بتصرف يسير، وإذا تصرفتُ فيه تصرفاً كثيراً ذكرتُ في الحاشية كلمة (انظر)، أما إذا لم أتصرف فيه

مطلقاً بأن كان نقلاً حرفياً أوردته بين قوسي تنصيص واكتفيتُ بالإشارة إلى المصدر أو المرجع دون كلمة (انظر).

ب) إذا اقتبستُ من المصدر أو المرجع فكرة ما، أو استفدتُ منه معلومة، أو أحلتُ إلى مرجع فأكثر توسَّع في بحث المسألة التي كنتُ أتحدثُ عنها، ذكرتُ في الحاشية كلمة (راجع).

ج) إذا كررتُ النقل من المصدر أو المرجع دون أن يفصل بين النقلين نقل من مصدر أو مرجع آخر، ذكرتُ في الحاشية عبارة (المصدر السابق).

د) إذا وضعتُ بين الكلمات في النص المنقول حرفياً هذه النقاط الثلاث (. . .)، سواءً في المتن أو الحاشية، فإن ذلك يعني أن هناك كلاماً محذوفاً تم الاستغناء عنه طلباً للاختصار، أو لعدم الفائدة من ذكره.

هـ) إذا احتاج النص المنقول حرفياً إلى إضافة كلمة؛ زيادة في الإيضاح، أو إزالة لإشكال في المعنى، وضعتُ هذه الكلمة بين هاتين الحاصرتين [ ].

وبعد: فهذا جهد بشر فما كان فيه من حق وصواب فمن الله وحده، وله الحمد والثناء على توفيقه، وما كان فيه من خطأ وزلل وتقصير فمني ومن الشيطان، واستغفر الله وأتوب إليه من ذلك.

والله أسأل أن يلهمني الرشد والصواب، وأن يرزقني إخلاص النية وصلاح العمل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

التمهيد

ترجمة موجزة للإمام

ابن قيم الجوزية

التمهيد

ترجمة موجزة للإمام ابن قيم الجوزية

أولاً: عصر ابن قيم الجوزية:

بما أن الإنسان يتأثر كثيراً بأحوال عصره، وبما أن البيئة التي ينشأ فيها لها أثر بالغ في تكوين شخصيته، وتوجيه نهجه ومسلكه، وتحديد نمط حياته. فإني سأوجز – فيما يلي – أحوال العصر الذي نشأ وعاش فيه ابن القيم من النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية.

١– الحالة السياسية :

ولد ابن القيم في مطلع العقد الأخير من القرن السابع الهجري، وعاش حتى منتصف القرن الثامن الهجري، وقد كان العالم الإسلامي – بصفة عامة وبلاد العراق والشام ومصر بصفة خاصة – في هذه الحقبة الزمنية مليئاً بالقلاقل، مشحوناً بالاضطرابات السياسية، حيث اكتنفته أحداث وظروف عديدة، تَمثَّل أهمها في الغزو التتري الشرس على العالم الإسلامي بقيادة (هولاكو خان)، الذي دمَّر الحضارة الإسلامية في مساحات شاسعة من الأرض تمتد من حدود الصين والهند إلى بلاد العراق والشام، حيث أزال المغول معالم الحضارة في البلاد التي تعرضت لغزوهم، وقتلوا قسماً كبيراً من السكان، ودمروا كثيراً من مظاهر العمران، واجتاحوا (بغداد) عاصمة البلاد الإسلامية ومقر الخلافة واستولوا عليها عام ٦٥٦هـ، وقتلوا خليفة المسلمين (المستعصم بالله)، وقاموا فيها بأعمال التخريب والقتل والتدمير، حتى صارت آنذاك بحراً من الدم

من كثرة القتلى، وقد تَغيَّر ريحها وفسد هواؤها من كثرة الجيف الملقاة في الطرقات[1].

ثم توجه التتار إلى الشام فاستولوا على بعض مدنها، وعاثوا فيها فساداً، فقتلوا ونهبوا وسبوا ودخلوا المساجد وفعلوا المنكرات[2]، ثم عزموا على دخول مصر فبادرهم المماليك بجيوش من مصر يقودها المظفر قطز (ت ٦٥٨هـ)، فهزموهم في عين جالوت[3] سنة ٦٥٨هـ شر هزيمة[4].

ثم كانت وقعة شقحب[5] سنة ٧٠٢هـ، والتي هزمت فيها جيوش الشام ومصر التتار هزيمة مرة[6]، فَحدَّت من طغيانهم وحسرت من نفوذهم، وأزالت خطرهم عن المدن الإسلامية في الشام ومصر إلى حد بعيد، بينما بقيت العراق والمشرق في قبضتهم يعيثون فيها فساداً[7].

---

(١) انظر: البداية والنهاية – لابن كثير، ج١٣/ص٢١٦، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرين، ط الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الريان للتراث – القاهرة.

(٢) راجع: المصدر السابق، ج١٣، ص٢٢٨ – ٣٣٣، وبدائع الزهور في وقائع الدهور – لابن إياس، ج١/ص٧٩، ط دار الشعب – القاهرة.

(٣) عين جالوت: بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. معجم البلدان – لياقوت الحموي، ج٤/ ص٢٠٠، تحقيق: فريد الجندي، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٤) راجع: البداية والنهاية، ج١٣/ص٣٣٣ – ٣٣٥، وبدائع الزهور في وقائع الدهور – لابن إياس، ج١/ص٧٩ – ٨٠.

(٥) نسبة إلى المكان الذي دارت فيه رحى الحرب، ويُعرف أيضاً بمرج الصُفّر، وهو موقع قريب من دمشق.

(٦) راجع: البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٤ – ٢٨.

(٧) راجع: المصدر السابق، ج١٤/ الصفحات: ٣٠ – ٣١، ٤٦ – ٤٧، ٦٨ – ٦٩.

ولقد توزعت كلمة المسلمين بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وضعفت شوكتهم، وأصبحت البلاد الإسلامية عبارة عن ممالك صغيرة يحكمها أمراء المماليك، ولم يكن للخلافة في ذلك الحين في مصر غير الاسم والرسم[1]، فالسيادة الفعلية كانت للمتغلبين من المماليك يعزلون من يشاءون ويولون من يريدون، وكان طابع السياسة لديهم انتهاز فرصة القفز على الحكم، فالأمير يقتل الأمير، بل وصل الأمر إلى أن يغدر الأخ بأخيه في سبيل الظفر بالولاية والحكم[2].

ومما يدل على هذا الاضطراب السياسي أنه تعاقب على السلطنة في حياة ابن القيم وحده أربعة عشر سلطاناً، أولهم: الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون ٦٨٩ – ٦٩٣هـ، وآخرهم: الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد ٧٤٨ – ٧٥٢هـ[3].

ومن الأحداث البارزة أيضاً لهذا العصر: أن الصليبيين الأوربيين أغاروا على ساحل الشام ونزلوا به واستولوا على معظم مدنه، وأسقطوا (عكا) وقتلوا من بها من المسلمين، ودخلوا بيت المقدس وهدموا أركانه وفعلوا به المنكرات.

---

(١) يقول ابن القيم في ذلك عن الخليفة: " اسمه على السِّكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع ". مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج١/ص٢٦٧، ط الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) راجع في هذا: البداية والنهاية، ج١٤/ في الصفحات: ١٩٨ – ٢٠٠، ٢٢٣ – ٢٢٥، ٢٤١ – ٢٥١. وبدائع الزهور – لابن إياس، ج١/ص١٥٠ وما بعدها.

(٣) راجع: بدائع الزهور، ج١/ الصفحات: ١٠١ – ١٦٦. وانظر: ابن القيم من آثاره العلمية – للدكتور أحمد البقري، ص٢٨، ط عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية.

وقد سعى السلاطين المماليك إلى تطهير بلاد الشام من فلول الفرنجة وبقايا الحروب الصليبية، فاستعادوا (عكا) سنة ٦٩٠هـ، كما استعادوا مدينة (صور) – بعد بقائها مائة واثنتين وسبعين سنة في أيدي الفرنجة – وكذا (صيدا) و(عثيلة) و(انطرطوس) و(جبيل)، ولم يبق بسواحل الشام معقل للإفرنج إلا واستعاده المسلمون، منهين بذلك ما كان من صراع مرير مع الصليبيين دام قرنين من الزمان[1].

٢- الحالة الاجتماعية :

لاشك أن الحالة السياسية في أي أمة لها أثر بالغ في مجريات الحياة الاجتماعية، ولذا فقد أدى سوء الحالة السياسية في عصر ابن القيم إلى اضطراب الحالة الاجتماعية في البلاد.

فقد نشطت مختلف الفرق المنحرفة عن المنهج الحق، كفرق الجهمية والمعطلة والجبرية والمعتزلة والقدرية، واشغلت المجتمع بعقائدها المختلفة، وكان هناك نشاط واسع للمتصوفة باتجاهاتها الفلسفية وطرائقها البدعية، كما كان للرافضة شأن في دولة التتار في العراق وخراسان، وسعى أهل الذمة من اليهود والنصارى إلى إظهار دينهم ونشر معتقداتهم، ولا سيما أيام استيلاء التتار على أجزاء من بلاد الشام، وكثر النزاع المذهبي والتفرق العقدي مما جر على البلاد

---

(١) راجع : البداية والنهاية ، ج١٣/ص٣٣٨ – ٣٤٢.

الخراب والدمار، وأوقع بها الكثير من المصائب والويلات[1].

وفي أواخر سنة ٦٩٤هـ وفي مستهل السنة التي تليها حصل في الديار المصرية قحط شديد ووباء مفرط ، فتوفي عدد كبير من الناس ، إلى حد أنه كان يدفن في الحفرة الواحدة الفئام من الناس ، وأصبحت الأسعار في غاية الغلاء ، والأقوات في غاية القلة ، وامتد الغلاء إلى بلاد الشام ، ثم زال في منتصف تلك السنة[2].

وفي سنة ٧٤٨هـ حصل على الناس في دمشق وبعض مدن الشام شدة وبلاء وغلاء شديد بسبب تأخر المطر[3]، وعم الجدب والقحط، وكثر اللصوص وقُطَّاع الطرق واستفحل أمرهم، وشاع السلب والنهب في البلاد، وعمد كثير من الناس إلى الغش في البيع والتطفيف في المكيال والميزان واحتكار الأقوات[4].

وأوغل كثير من المسلمين في الظلم والفواحش والفجور والغلو والبدعة في

---

(١) ومن ذلك على سبيل المثال: الخلاف المذهبي بين أهل السنة والرافضة عام ٦٥٥هـ كانت الغلبة فيه لأهل السنة، فاشتد حنق الرافضة ودبروا الشر لأهل السنة، حيث كتب الوزير الرافضي ابن العلقمي لهولاكو خان ملك التتار في ذلك الوقت يدعوه لغزو بلاد المسلمين، ففعل وكانت الكارثة بسقوط بغداد وقتل الخليفة وزوال مقر الخلافة الإسلامية، وما تبع ذلك من تدمير لمظاهر الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت. راجع: المصدر السابق، ج١٤/ص٢١٤، ٢٢٥.

(٢) انظر: المصدر السابق، ج١٣/ص٣٦٠، ٣٦٣ – ٣٦٤. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد الحنبلي، ج٥/ص٤٢٨، ط إحياء التراث العربي – بيروت. وبدائع الزهور – لابن إياس، ج١/ص١١٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٣٥.

(٤) راجع: بدائع الزهور، ج١/ص١٥٢.

الدين[1]، وشاع الغناء وكثرت مجالس الطرب، وانتشر البغاء وتعاطي الحشيش المخدر، وعُرف به قوم سموا بـــ(الحشاشين).

وقد تَصدَّى العلماء الصادقين والدعاة المخلصين لهـــذه العلـــل والأدواء الاجتماعية، فقاموا بواجبهم في المحافظة على تماسك المجتمع وشـــيوع الفضـــيلة ومحاربة الرذيلة، وإزالة المنكرات وتأديب أهلها والأخذ على أيديهم، ودعوا إلى التسعير وإلى إلزام أرباب السلع ببيع سلعهم بقيمة المثل وألفوا كتباً ورسائل في ذلك، كما قاموا بمناقشة أصحاب الفرق المنحرفة والرد على باطلهم[2].

وأسهم الصراع مع الغزاة من الصليبيين والتتار في إذكاء روح الجهـــاد في الأمة، كما كان للشدة التي عانى الناس منها بين حين وآخر أثـــرٌ في توجيـــه القلوب إلى الله وخضوعها له، وظل الاعتزاز بالدين – بالجملة – سائداً في أبناء ذلك العصر، ولا أدل على ذلك من دخول الأمة الغازية المتغلبة من التتار في دين الإسلام.

٣– الحالة العلمية :

رغم عدم استقرار الحالتين السياسية والاجتماعية - كما تقـــدم - فقـــد ازدهرت الحياة العلمية في الشام ومصر في القرنين السابع والثامن الهجـــريين إلى حد بعيد، ولاسيما بعد الغزو التتري، فظهر في ذلك العصر الكثير من المؤلفات

---

(١) راجع: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان – لابن القيم، ص٦٥٠، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط دار الحديث – القاهرة.

(٢) راجع: البداية والنهاية، ج١٤/ص٣٦ – ٣٨، ٥١- ٥٢.

القيمة في علوم الشريعة المختلفة[1]، وصُنِّفت الكثير من الموسوعات والمطولات في اللغة العربية والتأريخ والتراجم[2]، واشتهر جمع كبير من العلماء البارزين، أمثال: العلامة ابن دقيق العيد (ت سنة ٧٠٢هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وبدر الدين بن جماعة (ت سنة ٧٣٣هـ)، وابن سيد الناس (ت سنة ٧٣٤هـ)، والحافظ المزي (ت٧٤٢هـ)، والحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ)، وابن هشام (ت٧٦١هـ)، وابن مفلح (ت٧٦٣هـ)، وغيرهم كثير، وانصرفت جهود هؤلاء العلماء إلى التدريس والخطابة والوعظ والتأليف.

وأسهم السلاطين المماليك في هذه النهضة العلمية – ليقينهم بأن العلم سياج الدولة – فقربوا العلماء وشجعوهم، وعُنوا بالوظائف العلمية، كالقضاء والخطابة والإفتاء.

ووجدت الحلقات العلمية المنتظمة في الجامع الأموي بدمشق وجامع الحاكم بمصر، وانتشرت المدارس في ذلك العصر[3]، واهتم بها الأمراء، ورُصدت لها الأوقاف، فأسهمت كثيراً في تنشيط الحركة العلمية، ويسَّرت سُبل التحصيل

---

(١) منها كتب ومؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم.

(٢) منها على سبيل المثال: لسان العرب – لابن منظور (ت سنة ٧١١هـ)، والبداية والنهاية – لابن كثير (ت سنة ٧٧٤هـ)، والوافي بالوفيات – للصفدي (ت سنة ٧٦٤هـ).

(٣) منها على سبيل المثال: الناصرية، والصالحية، والظاهرية، ودار الحديث الأشرفية، والعذراوية، والجوزية، والشبلية، والغزالية، والسامرية.

راجع في هذا: البداية والنهاية، ج١٣/ص٣٦٠، ٣٧٢، وج١٤/ص٥٩ – ٦٠، ٦٣. والدارس في تاريخ المدارس – لعبد القادر النعيمي، ج١/ ص١٩٣ وما بعدها، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

العلمي للراغبين فيه، إلا أن وقف كل مدرسة على مذهب فقهي معين أذكى روح التقليد في المشتغلين بالعلم في ذلك العصر.

ولذا يمكن القول إن التقليد كان السمة البارزة آنذاك، ومما يؤكد ذلك ما لقيه الأئمة المجتهدون، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وغيرهم[1] من محن بسبب بعض اجتهاداتهم وفتاويهم المتحررة من ربقة التقليد.

ولغلبة التقليد وضعف روح الابتكار والتجديد توجهت جهود أكثر العلماء إلى تراث المتقدمين؛ دراسة له، وشرحاً لمختصراته، أو اختصاراً لمطولاته.

ثانياً: حياة ابن قيم الجوزية[2]:

اسمه ونسبه ومولده:

هو الإمام الرباني والعالم والفقيه الجليل أبو عبد الله شمس الدين محمد

---

(١) انظر: شذرات الذهب – لابن العماد الحنبلي، ج٦/ص٢٣٢.

(٢) راجع في هذه الترجمة كلاً من:

- البداية والنهاية – لابن كثير، ج١٤/ص٢٤٦ – ٢٤٧.
- والذيل على طبقات الحنابلة – لابن رجب الحنبلي، ج٤/ص٢٤٧ – ٤٥٢، ط دار المعرفة – بيروت.
- والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – لابن حجر العسقلاني، ج٤/ص٢١ – ٢٣، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط دار الكتب الحديثة – القاهرة.
- وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد الحنبلي، ج٦/ص١٦٨ – ١٧٠.
- والوافي بالوفيات – لصلاح الدين الصفدي، ج٢/ص٢٧٠ – ٢٧٢، ط الثانية ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، دار النشر فرانز شتاينز بفيسبادن.

ابن أبي بكر أيوب بن سعد بن حَرِيز الزُّرْعي[1] الدمشقي الحنبلي، ولد بدمشق في اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١هـ، ونشأ في بيت علم ودين وفضل :

- فوالده أبو بكر بن أيوب، عالم جليل ورجل تقي صالح، كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق[2]، ولذا اشتهر بلقب (قيم الجوزية)، كما اشتهر به أبناؤه وذريته من بعده، فيقال للواحد منهم – ولا سيما إمامنا شمس الدين محمد بن أبي بكر – (ابن قيم الجوزية).
- وأخوه زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر أمام عالم، تتلمذ على يديه كثير من العلماء، منهم الحافظ ابن رجب الحنبلي.

ولزين الدين عبد الرحمن هذا ابن فاضل هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين ابن القيم بعد وفاته.

وقد امتد هذا التوجه العلمي في أبناء الإمام شمس الدين بن القيم، فابنه شرف الدين عبد الله، كان مفرط الذكاء، ومن العلم والصلاح بمكان، تتلمذ على والده وتولى التدريس في مكانه بعد وفاته. وابنه برهان الدين إبراهيم علامة نحوي فقيه متقن، أخذ العلم عن أبيه وغيره، وأفتى ودرَّس وألَّف وناظر.

تحصيله العلمي :

توجه ابن القيم لطلب العلم وتحصيله منذ صغره ، فقد بدأ السماع من

---

(١) الزرعي: نسبة إلى (زرع)، وهي قرية صغيرة من بلاد حوران، وتسمى اليوم (ازرع)، وتقع جنوبي دمشق.

(٢) وهي من أكبر مدارس الحنابلة آنذاك بدمشق، ونسبتها لواقفها محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي، المتوفى سنة ٦٥٦هـ. انظر: الدارس في تاريخ المدارس – للنعيمي، ج٢/ص٢٣.

شيوخه وهو في السابعة من عمره[1]، ثم لم يزل يثابر في طلب العلم ويترقى في درجاته حتى حاز علماً جماً وبلغ فيه منزلة رفيعة.

وقد هيأ الله سبحانه له جملة من الأسباب مهَّدت لبروزه، وأسهمت في تفوقه في العلم ورسوخ قدمه فيه، منها :

١- قوة حافظته، ووفور عقله، وسلامة فكره، وتعدد مواهبه.

٢- رغبته الصادقة الجامحة في العلم، واجتهاده البالغ في تحصيله، وافناؤه عمره في ذلك[2].

٣- كثرة الكتب والمؤلفات ووفرتها في عصره.

٤- ما تهيأ له من كبار العلماء الراسخين في مختلف العلوم والفنون، الذين تتلمذ على أيديهم ونهل من علومهم، فكان لهم الأثر القوي في تكوينه الفكري ونضجه العلمي.

ومن أشهر هؤلاء العلماء ما يلي[3]:

١-أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي الحنبلي، المعروف بالشهاب العابر، المتوفى سنة ٦٩٧هـ، وهو أقدم شيوخ ابن القيم.

---

(١) حيث درس على الشيخ أبو العباس العابر المتوفى سنة ٦٩٧هـ. انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣/ ص٦١٥ - ٦١٦، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٤٦.

(٣) تم ترتيب ذكر هؤلاء العلماء بحسب تاريخ وفياتهم.

٢-أبو الفتح شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلبكي الحنبلي الفقيه اللغوي المتوفى سنة ٧٠٩هـ.

٣-أم محمد فاطمة بنت الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلي، المسندة المحدثة، المتوفاة سنة ٧١١هـ.

٤-صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأربوي الهندي، الفقيه الأصولي المتوفى سنة ٧١٥هـ.

٥-تقي الدين أبو الفضل سليمان بن قدامة المقدسي الحنبلي، مسند الشام وكبير قضاتها، المتوفى سنة ٧١٥هـ.

٦-أبو الفداء إسماعيل بن يوسف بن مكتوم القيسي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧١٦هـ.

٧-أبو بكر زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، المتوفى سنة ٧١٨هـ.

٨-شرف الدين عيسى بن عبد الرحمن المُطعِّم، المتوفى سنة ٧١٩هـ.

٩-والده أبو بكر بن أيوب (قيم الجوزية)، المتوفى سنة ٧٢٣هـ، أخذ عنه الفرائض.

١٠- شرف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٧هـ.

١١- تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شيخ الإسلام المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وهو أجل شيوخه وأكثرهم أثراً في تكوينه الفكري ونضجه العلمي وتوجهه السلفي، لازمه حتى تفقّه به وأخذ عنه علماً جماً.

١٢- مجد الدين إسماعيل بن محمد الفراء الحراني، شيخ الحنابلة بدمشق، المتوفى سنة ٧٢٩هـ.

١٣- زين الدين أيوب بن نعمة النابلسي الكحال الدمشقي، المتوفى سنة ٧٣٠هـ.

١٤- بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة الحموي الشافعي، قاضي القضاة والإمام الخطيب المفسر، المتوفى سنة ٧٣٣هـ.

١٥- جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن زكي الدين الدمشقي الشافعي، المعروف بالحافظ المزي، إمام المحدثين، المتوفى سنة ٧٤٢هـ.

وقد درس ابن القيم على هؤلاء العلماء المتبحرين علوم الشريعة وعلوم الآلة: التوحيد، وعلم الكلام، والتفسير، والحديث، والفقه وأصوله، والفرائض، واللغة والنحو، وغيرها من العلوم، حتى برع فيها وعلا كعبه وفاق الأقران.

يقول عنه ابن رجب: " تفقه في المذهب، وبرع وأفتى...، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً في التفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليد الطولى، [وعلم] الكلام، والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وأشاراتهم ورقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى"(١).

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة، ج٤/ص٤٤٨.

ويقول ابن كثير: " سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة، سيما علم التفسير والحديث والأصلين "(١).

ويقول ابن حجر: " كان جرئ الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف "(٢).

ويقول ابن تغري بردي: " وكان بارعاً في عدة علوم ما بين تفسير وفقه وعربية ونحو وحديث وأصول وفروع"(٣).

ويقول السيوطي: " صنف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية "(٤).

ويقول الشوكاني: " برع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق، وتبحر في معرفة مذاهب السلف "(٥).

عقيدته ومذهبه :

سلك ابن القيم – رحمه الله – مسالك علماء السلف في عقيدته، فقررها في عامة كتبه أحسن تقرير، ودعا إليها وردَّ على المخالفين لها، وبيَّن ذلك أحسن بيان في قصيدته النونية المشهورة المعروفة بـ(الكافية الشافية في الانتصار

---

(١) البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٤٦.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٤/ص٢١.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٠/ص٢٤٩، ط عام ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة.

(٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج١/ص٦٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة.

(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج٢ / ص١٤٣، ط مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

للفرقة الناجية)، ولقد كانت كتبه وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية – ولم تزل – مرجعاً معتمداً في تقرير عقيدة السلف في مسائل التوحيد والغيب والنبوات وأركان الإيمان وأفعال العباد وغيرها من قضايا الاعتقاد.

وأما مذهبه الفقهي فهو مذهب الحنابلة كأسلافه وعقبه من العلماء، ووصفه بعض من ترجم له من العلماء بالمجتهد المطلق[1]. وقد امتاز – رحمه الله– في دراساته واختياراته الفقهية باتباعه للدليل وترك ما خالفه كائناً من كان قائله[2]، ومحاربته للتقليد وتشنيعه على المقلدة[3]، واحترام الأئمة ومعرفة فضلهم ونصحهم لله ورسوله، واجتناب تنقّصهم أو الوقيعة فيهم، مع ترك ما جانب الصواب – في نظره – من أقوالهم[4].

أخلاقه وعبادته :

نشأ ابن القيم في أسرة ذات علم وفضل – كما تقدم –، وكان حريصاً على مجالس العلماء من ذوي التقى والصلاح والخلق الكريم، يتقلّب فيها ويقتبس منها العلم والخلق والفضيلة، فنشأ نشأة كريمة على أخلاق عالية وصفات حميدة، وتقى وصلاح وورع، واجتهاد في الطاعة والعبادة.

---

(١) كابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، ج٦/ص١٦٨. والشوكاني في البدر الطالع، ج٢/ص١٤٣.

(٢) راجع: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٤/ص١٧٧، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، ط عام ١٩٧٣م، دار الجيل – بيروت.

(٣) وقد بسط الكلام في ذلك في كتابه (أعلام الموقعين)، راجع على سبيل المثال: ج٢/ص١٨٧ وما بعدها.

(٤) راجع: المصدر السابق، ج٣/ص٢٨٣. والبدر الطالع، ج٢/ص١٤٣ – ١٤٥.

كما كان لطيب نفسه وعلو همته وعنايته الفائقة بالفضائل الخلقية؛ بحثاً وتحقيقاً ودراسة أثرها القوي في حسن وسيرته.

ولذا فقد أشاد مترجموه بأخلاقه الفاضلة وزهده وعبادته، ويقينه بالله وحبه له وإنابته إليه، ودأبه في السير إلى الله والدار الآخرة.

يقول ابن كثير: " كان حسن القراءة والخُلُق، كثير التودد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد، وكنتُ أصحب الناس له وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله...، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة"[1].

ويقول ابن رجب: " وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه...، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه في ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة،... وحج مرات وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً

---

(١) البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٤٦.

يُتعجب منه "[1].

ويقول ابن حجر: " وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار، ويقول: (هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي)، وكان يقول: (بالصبر والفقر تُنال الإمامة في الدين)، وكان يقول: (لابد للسالك من همة تُسيِّره وتُرقِّيه وعلم يُبصِّره ويهديه) "[2].

أعمـــاله :

ارتبطت أعمال ابن القيم – رحمه الله – بحياته العلمية فلم تخرج عنها، وأهم هذه الأعمال التي أمضى فيها عمره :

أ) الإمامة بالمدرسة الجوزية التي كان والده قيماً عليها، وقد أَمَّ الناس فيها مدة طويلة، وكذا الخطابة في بعض جوامع دمشق.

ب) التدريس، وقد بدأ الجلوس له أيام ملازمته لشيخه ابن تيمية إلى وفاته، وقد عُني في دروسه بتقرير مسائل الاعتقاد، كما درَّس الحديث والتفسير والفقه وأصوله، وغيرها من العلوم.

وقد أخذ عنه العلم جمع غفير من كبار الحفاظ ومشاهير العلماء من الحنابلة وغيرهم، كشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، العالم الحافظ المتوفى سنة ٧٤٤هـ، والمحدث البارع محمد بن أحمد الذهبي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وابنه عبد الله المتوفى سنة ٧٥٦هـ، ومحمد بن محمد بن أحمد المُقري القرشي المتوفى سنة ٧٥٩هـ، وابنه إبراهيم المتوفى سنة

(١) الذيل على طبقات الحنابلة، ج٤/ص٤٤٨.

(٢) الدرر الكامنة، ج٤/ص٢١-٢٢.

٧٦٧هـ، وعلامة التفسير والفقه والحديث الحافظ ابن كثير الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤هـ، والحافظ ابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ.

ج) الإفتاء والمناظرة، حيث سعى من خلالهما إلى نشر السنة وبيان الحق للناس، مستشعراً في ذلك نعمة العلم، ومسؤولية تبليغه للناس، ووجوب الصبر على تبعات ذلك من المحنة والابتلاء والأذى.

د) التأليف، حيث أولاه جل عنايته، فجاءت مؤلفاته وافرة العدد[1]، كثيرة النفع، قيِّمة المحتوى، وعلى درجة عالية من التحرير والإتقان والتأصيل.

ومن أشهر هذه المؤلفات مما هو مطبوع ومتداول ما يلي :

١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

٣- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٥- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم و الإرادة.

٦- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.

٧- الفوائد.

٨- الروح.

---

(١) لقد عُني الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – بهذه المؤلفات وتتبعها وضبطها، فبلغ مجموع ما وقف عليه منها ستة وتسعون كتاباً. راجع: التقريب لفقه ابن القيم، ج١/ص١٦٨ وما بعدها، مطابع دار الهلال – الرياض.

٩- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

١٠- تحفة المودود في أحكام المولود.

١١- أحكام أهل الذمة.

١٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

١٣- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

١٤- أعلام الموقعين عن رب العالمين.

١٥- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

١٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل.

١٧- الرسالة التبوكية.

١٨- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

١٩- زاد المعاد في هدي خير العباد.

٢٠- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.

٢١- الوابل الصيب من الكلم الطيب.

٢٢- الصلاة وحكم تاركها.

٢٣- تهذيب مختصر سنن أبي داود.

٢٤- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢٥- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.

٢٦- بدائع الفوائد.

٢٧- التبيان في أقسام القرآن.

٢٨- الفروسية.

محنتـــه :

أوذي ابن القيم – رحمه الله – لصدعه بالحق وإنكاره بعض ماكان شائعاً في عصره من مخالفات، فقد حُبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل، كما أثارت بعض آرائه واختياراته بعض علماء عصره ممن جمدوا على التقليد، وضاقت نفوسهم عن تقبّل الخلاف وتقدير الرأي المدعوم بالدليل، فسـعوا إلى إيذائـه والنيل منه وتأليب الولاة عليه.

وسجن مع شيخه ابن تيمية بالقلعة منفرداً عنه، وظل بالسجن حتى وفاة شيخه سنة ٧٢٨هـ.

وجرى له بسبب فتواه في مسألة الطلاق، وفتواه بجواز المسابقة بغير محلل محن طويلة مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ وغيره.

وفـاتـه :

توفي ابن القيم ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب سنة ٧٥١هـ وقت أذان العشاء، وصلي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي ثم بجـامع الجراح، وقد كانت جنازته حافلة شهدها القضاة والأعيان والصالحون، وتزاحم الناس على حمل نعشه، ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق عند والدته رحمهمـا الله تعالى.

الفصل الأول

قيم السلوك مع اللّه عند ابن القيم

الفصل الأول

قيم السلوك مع الله عند ابن القيم

توطئـــــة :

القيم في اللغة : جمع قيمة، وهي مأخوذة من الاستقامة، يقـــال: أقمـــت الشيء وقوَّمته فقام أي استقام، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[1] ، أي: مستقيمة تُبيِّن الحق من الباطل على استواء وبرهان[2].

وجاء في القاموس المحيط: القَوامُ: العدلُ وما يعاش به، والقِوامُ: نظام الأمر وعماده وملاكه، واستقام: اعتدل[3].

وعُرفت (القيم) في الاصطلاح بتعريفات عدة[4]، لعل من أبرزهـــا: أنهـــا " حكم يُصدره الإنسان على شيء ما مهتدياً بمجموعة المبادئ والمعـــايير الـــتي ارتضاها الشرع، محدداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك "[5].

---

(١) سورة البينة، الآية ٣.

(٢) انظر: لسان العرب – لابن منظور، مادة (قوم)، ج١١/ص٣٥٩، ط الثالثة ١٤١٩هـــ – ١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) انظر: القاموس المحيط – للفيروزابادي، بـــاب المـــيم فصـــل القـــاف، ج٤/ص١٣٨، ط الأولى ١٤٢٠هـــ – ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٤) راجع: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – لمحمد أحمد ســـيد وآخـــرين، ج١/ص٨٠، ط الأولى ١٤١٨هـــ، دار الوسيلة – جدة.

(٥) علم النفس الاجتماعي – للدكتور حامد زهران، ص١٣٢، ط الرابعة ١٩٧٧م، عالم الكتـــب – القاهرة.

إلا أنه يلاحظ على هذا التعريف أنه يجعل من القيم أحكاماً. وليس الأمر كذلك، بل هي صفات ومعاني خَيِّرة نستطيع من خلالها – وجوداً وعدماً – أن نحكم على الأقوال والأفعال والأشياء بالخير والشر، والحسن والقبح، ومن ثم بالقبول والرد.

والأفضل في تعريف القيم في الإسلام أن يقال: " أنها صفات ذاتية في طبيعة الأقوال والأفعال والأشياء، مستحسنة بالفطرة والعقل والشرع "[١].

"- فالقيم صفات ومعاني تختلف بحسب ما تُنسب إليه، فقد تكون فكرية، أو سلوكية، أو غيرها.

- وهي ذاتية في الأشياء، ولذا فهي ثابتة ومطلقة لا تتغير بتغير الظروف، أو باختلاف من يُصدر الحكم عليها.
- ومستحسنة بالفطرة والعقل والشرع، أي أن العقول والفطر جُبلت على تعظيمها والميل إليها، وقد جاء الشرع بما يتفق مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة"[٢].

والسلوك مصدر سلَكَ طريقاً، وسَلَكَ المكان وبه وفيه سلكاً وسلوكاً: دَخَلَ ونَفَذَ، وسَلَكَ الشيء في الشيء وبه: أدخله. وسَلَكَ فلاناً المكان: أدخله إياه. والمَسْلَكُ: الطريق، ومنه مسالك المياه. والسُّلوك: سيرة الإنسان ومذهبه

---

(١) قيم الإسلام الخلقية وآثارها – لعبد الله بن محمد العمرو، ص١٢، رسالة ماجستير مخطوطة مقدمة إلى قسم الثقافة الإسلامية بكلية الشريعة بالرياض عام ١٤٠٩هـ.

(٢) ملامح الهوية التي ينبغي أن يتميز بها المسلم في حاضره المعاصر – للدكتور مفرح بن سليمان القوسي، ط الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار إمام الدعوة – الرياض.

واتجاهه، يقال: فلان حسن السلوك أو سيء السلوك[1].

والسلوك عند ابن القيم – رحمه الله – هو سلوك الطريق إلى الله عز وجل، وذلك بتهذيب النفوس وتزكيتها وتطهير القلوب ومعالجة أمراضها، لتسعد بسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب.

وعليه فالمراد بقيم السلوك هنا: الصفات السلوكية الذاتية الخيِّرة التي يقتضيها الشرع والعقل والفطرة في صلة العبد بربه، وعبادته إياه، وسلوك الطريق إليه سبحانه.

وقد جعل ابن القيم قدوته ورائده في طريقه للوصول إلى الله تعالى إمام المتقين محمداً ﷺ ، فنهج نهجه وسلك طريقه الحنيف الذي سنه لأمته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2]، وسمع نداء الحق تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[3]، فلم تغره الدنيا بزخارفها، ولم تلهه بعلائقها، وأحب لقاء الله فجد واجتهد في سيره الحثيث إليه، وعني برسم معالم ذلك الطريق وتوضيح منازله ومقاماته وأحواله ووسائل السير فيه.

---

(١) انظر في هذا كلاً من: معجم مقاييس اللغة – لابن فارس، ج٣/ص٩٧، تحقيق: عبد السلام هارون، ط الأولى ١٣٦٨هـ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة. ولسان العرب – لابن منظور، مادة (سلك)، ج٦/ص٣٣٧. والمعجم الوسيط – لمجمع اللغة العربية، ج١/ص٤٤٧، ط الثانية ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م، دار المعارف– القاهرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

وأود قبل أن أشرع – في المباحث التالية – في بيان أبرز تلك المقامات والأحوال التي يمر بها السالك في سيره إلى الله تعالى، والتي يسميها ابن القيم منازل العبودية أو منازل السير إلى الله[1]. أود أن أشير إلى الأمور الثلاثة التالية :

الأول: أني لم أحصي في هذا الفصل كل قيم السلوك ومنازل السير عند ابن القيم، فهذا – بلا شك – مما يضيق عنه نطاق هذا البحث، وإنما اكتفيتُ بذكر نماذج من أهم هذه القيم والمنازل، مع العناية بدراسة المسائل والتفصيلات الخاصة بها[2].

الثاني: أني سرتُ في ترتيب تناول ما ذكرته من قيم السلوك ومنازل السير على وفق ترتيب ابن القيم لها في كتابه (مدارج السالكين).

الثالث: ما نبَّه عليه ابن القيم في بداية حديثه عن هذه المنازل أو المقامات، وهو: أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه

---

(١) يُفرق أرباب السلوك – ومنهم ابن القيم – بين المقامات والأحوال، فيرون أن المقامات تكتسب بطريق المجاهدات والعبادات والرياضات، وأن الأحوال تأتي من فيض الله تعالى، فالمقامات كسبية، والأحوال وهبية. راجع: مدارج السالكين، ج١/ص١١٠، و ج٢/ ص٣٣٥. ويؤكد الجرجاني على هذا، حيث يقول في تعريفه للحال بأنه: " معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا، فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود "، التعريفات، ص٩٥، ط الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الكتاب المصري – القاهرة، ودار الكتاب اللبناني – بيروت.

(٢) من القيم والمنازل التي لم أذكرها: منزلة (الورع)، ومنزلة (الأدب)، ومنزلة (المحاسبة)، ومنزلة (تعظيم حرمات الله)، ومنزلة (الإخبات)، ومنزلة (التبتل)، ومنزلة (الحياء)، وغيرها.

وينتقل منه إلى الثاني بعده كمنازل السير الحسي، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له، فبعض المقامات متوقف على بعض ومستصحب لبعض، فمن المقامات ما يكون جامعاً لمقامين، ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيها جميع المقامات. حيث يقول - رحمه الله -: " اعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي، هذا محال، ألا ترى أن (اليقظة) معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك (البصيرة) و(الإرادة) و(العزم)، وكذلك (التوبة) فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً، بل هي في كل مقام مستصحبة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته، فقال تعالى في غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[1] ، فجعل التوبة أول أمرهم وآخره، وقال في سورة أجل رسول الله ﷺ التي هي آخر سورة أنزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾[2] . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة إلا قال في ركوعه

---

(١) سور التوبة، الآية ١١٧.

(٢) سورة النصر، الآيات ١ – ٣.

وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن"[1]، فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[2]، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة. وكذلك (الصبر) فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات. وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له. ومثال ذلك: أن (الرضا) مترتب على (الصبر) لتوقف الرضا عليه واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام (الرضا) أو حاله – على الخلاف بينهم هل هو مقام أو حال ؟ – بعد مقام (الصبر) لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية"[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الأذان)، الباب (١٣٩)، الحديث رقم (٨١٧)، ج٢/ ص٢٩٩، ط رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء – الرياض. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود)، ج٤/ص٢٠١، ط الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الريان للتراث – القاهرة.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٢ – ٧٣.

(٣) مدارج السالكين، ج١/ص١٠٨ – ١٠٩. وانظر: الفوائد، ص١٧٩، تحقيق: د. ماهر عبد الرازق وكمال الجمل، ط الثالثة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار اليقين، مصر – المنصورة.

ويقول أيضاً: " ومن المقامات ما يكون جامعاً لمقامين، ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه. فـ(التوبة) جامعة لمقام (المحاسبة) ومقام (الخوف)، لا يتصور وجودها بدونهما. و(التوكل) جامع لمقام (التفويض) و(الاستعانة) و(الرضى) لا يتصور وجوده بدونها. و(الرجاء) جامع لمقام (الخوف) و(الإرادة). و(الخوف) جامع لمقام (الرجاء) و(الإرادة). و(الإنابة) جامعة لمقام (المحبة) و(الخشية)، لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما... ومقام (المحبة) جامع لمقام (المعرفة) و(الخوف) و(الرجاء) و(الإرادة)، فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة، وبها تحققها... ومقام (الشكر) جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق (الرضا)، وهو يتضمن (الصبر) من غير عكس، ويتضمن (التوكل) و(الإنابة) و(الحب) و(الإخبات) و(الخشوع) و(الرجاء)، فجميع المقامات مندرجة فيه، لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له "[1].

(١) مدارج السالكين، ج١/ص١١٠ – ١١١.

المبحث الأول: التوبة:

التوبة مبدأ مقامات السالكين وأول مراحل الطريق إلى الله، بل هي المدخل المفضي إلى ذلك الطريق، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية، ومن لا توبة له لا سير له، وهي رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه. يقول ابن القيم: " ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] "[2].

حقيقة التوبة ومكانتها :

ويبين ابن القيم حقيقة (التوبة) ومكانتها في الإسلام، فيقول: " إن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقال

---

(١) سورة النور، الآية ٣١.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ص١٤١ – ١٤٢.

(٣) سورة النور، الآية ٣١.

تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم. وزوال اسم (الظلم) عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين.

فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا، فالتائبون هم ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾[2]، فحفظ حدود الله جزء من التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور. وإنما سمي تائباً لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته كما تقدم.

فإذاً (التوبة) هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى (التوبة)، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذاً (التوبة) هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته – كما تقدم – وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها"[3].

ويقول: "و(التوبة) لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١١.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٢.

(٣) المصدر السابق، ج١/ص٢٣٥ – ٢٣٦.

تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾[1] ، وبقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، وبقوله: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾[3]، ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝ ﴾[4] ، قال البغوي وغيره: (يتوب إلى الله متاباً: يعود إليه بعد الموت متاباً حسناً يفضل على غيره)، فالتوبة الأولى – وهي قوله (ومن تاب) – رجوع عن الشرك، والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة"[5].

ويقول أيضاً: "حقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة"[6].

علامات التوبة الصحيحة :

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٢) سورة الشورى، الآيتان ٥٢ – ٥٣.

(٣) سورة الحج، الآية ٢٤.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٧١.

(٥) المصدر السابق، ج١/ص٢٤٠ – ٢٤١.

(٦) المصدر السابق، ج١/ص١٤٤.

ويحدد ابن القيم علامات التوبة المقبولة الصحيحة، فيقول: إن "منها: أن يكون [التائب] بعد التوبة خيراً مما كان قبلها. ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] فهناك يزول الخوف. ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها"[2].

النصح في التوبة :

ويتناول ابن القيم التوبة النصوح ويبين أن: " النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

والثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها. ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص١٤٨.

لقضاء همته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل"[١].

الآثار الحسنة للتوبة :

ويؤكد ابن القيم أن للتوبة آثاراً حسنة كثيرة، فيقول: " إن التوبة تُوجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها، فتوجب له من المحبة والرقّة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أُخَر، فإنه إذا تاب إلى الله تقبّل الله توبته فرتّب له على ذلك القبول أنواعاً من النِّعَم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها"[٢].

---

(١) المصدر السابق، ج١/ص٢٣٨. وراجع: ج١/ ص١٥٩ من الجزء نفسه.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ص٣٠٥ – ٣٠٦، ط عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية – بيروت.

المبحث الثاني: الإنابة:

حقيقة الإنابة :

إذا استقرت قدم العبد السالك في منزلة (التوبة) نزل بعده منزلة (الإنابة)[١] والإنابة عند ابن القيم: " الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له خاشع ذليل"[٢]، وهي: " عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ "[٣].

قيمة الإنابة وفضلها :

وتبرز قيمة (الإنابة) وفضلها في قول ابن القيم: " كثيراً ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[٤] ، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٥]،

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ج١/ص٣٢٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣١٣، بتحقيق: يوسف علي بديوي، ط الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار ابن كثير — دمشق.

(٣) الفوائد، ص٢٣٧.

(٤) سورة الزمر، الآية ٥٤.

(٥) سورة هود، الآية ٨٨.

وقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[1]، وقولـه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[2]، وقوله عن نبيه داود: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[3] "[4]، وقد " أخبر [سبحانه] أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقـال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ﴾[5]، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾[6] "[7].

أقسام الإنابة :

ويقسم ابن القيم (الإنابة) – في بيانه لها – إلى قسمين: إنابة لربوبيته وإنابة لإلهيته، فالإنابة الأولى " هي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال الله تعـالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[8]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هـو الواقـع، وهـذه

(١) سورة ق، الآية ٨.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٧.

(٣) سورة ص، الآية ٢٤.

(٤) طريق الهجرتين، ص٣١٤.

(٥) سورة ق، الآيات ٣١ – ٣٤.

(٦) سورة الزمر، الآية ١٧.

(٧) مدارج السالكين، ج١/ص٣٢٨.

(٨) سورة الروم، الآية ٣٣.

(الإنابة) لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾[1] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك"[2].

أصناف الناس في الإنابة :

ويصنف الناس في إنابتهم إلى الله إلى درجات عدة، فيقول: " والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم: المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحاملُ عليها العلم والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حُبِّبَ إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول، وأشرح صدوراً، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء

---

(١) سورة الروم، الآيتان ٣٣ – ٣٤.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص٣٢٨ – ٣٢٩.

اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، وأملهم المنيب عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** ﴾[2] "[3].

وبعد أن فرغ – رحمه الله – من ذكر أصناف المنيبين الثلاثة حدد أعلى أنواع الإنابات وأفضلها، وهي إنابة الروح لخالقها سبحانه، حيث يقول: " وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله، معرضةٌ عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له. فأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

(٣) طريق الهجرتين، ص٣١٣ – ٣١٤.

الإنابة، فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه أنابت جميع القوى والجوارح، فأناب القلب أيضاً بالمحبة والتضرع والذل والانكسار، وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمها له، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها، وأنابتِ النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت لأوامره خاضعة له، داعية فيه، مؤثرة إياه على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضاً إلى مولاها ورضى بقضائه وتسليماً لحكمه"[1].

(١) المصدر السابق، ص٣١٤ – ٣١٥.

المبحث الثالث: الخـوف:

قيمة الخوف وفضله:

منــزلة (الخوف) – في نظر ابن القيم – " من أجلّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد، قال الله تعــالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[2]، وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[3] ، ومدح أهله في كتابه وأثنى علــيهم، فقــال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قولـــــــــه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[4] "[5].

ويتابع ابن القيم في بيان علو منــزلة (الخوف) فيقول: "وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت (يا رســول الله قــول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[6] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ ، قال: لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبــل

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات ٥٧ – ٦١.

(٥) مدارج السالكين، ج١/ ص٣٨٦.

(٦) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

منه)[١]، قال الحسن: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً) "[٢].

ويقول أيضاً: " إن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان التي عليها مدار مقامات السالكين جميعاً، وهي الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[٣]، فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. ثم يقول: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[٤] فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى : إن الذين تدعوهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدوهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟"[٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٢٥٧٠٥)، ج٤٢/ص٤٦٥، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة – بيروت. ورواه الترمذي في سننه في كتاب (تفسير القرآن)، الباب (٢٣)، الحديث رقم (٣١٨٨)، ج٥/ص٣٢٧، ط عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار إحياء التراث العربي – بيروت. كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (٢٠)، الحديث رقم (٤١٩٨)، ص٦٩٧، ط مكتبة المعارف – الرياض، وقد حسنه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ص٣٨٦.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان ٥٦ – ٥٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٥٧.

(٥) طريق الهجرتين، ص٥٠٩.

حقائق الخوف :

ويبسط ابن القيم الكلام في تعريف (الخوف) وبيان حقائقه، فيقول: " (الوجل) و(الخوف) و(الخشية) و(الرهبة) ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد[1] : (الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس). وقيل: (الخوف اضطراب القلب وحركته من تذمر المخوف) وقيل: (الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام) . وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه. وقيل: (الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره).

و(الخشية) أخص من (الخوف)، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[2] ، فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي ﷺ : (إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية)[3]، فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان :

إحداهما: حركة للهروب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية. ومنه: انخش الشيء....

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، أبو القاسم، شيخ الصوفية، صاحب تأله وتعبد وحكمة، توفي سنة ٢٩٧هـ. انظر: طبقات الصوفية – للسلمي، ص١٥٥، تحقيق: نور الدين شريبة، ط الثانية ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م، مكتبة الخانجي – القاهرة. وشذرات الذهب – لابن العماد الحنبلي، ج٢/ص٢٢٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الصيام)، باب (حكم التقبيل في الصوم)، ج٧/ص٢١٩.

وأما (الرهبة) فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد (الرغبة) التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه... وأما (الوجل) فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته. وأما (الهيبة) فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: (إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية)[1]، وفي رواية (خوفاً)، وقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات[2] تجأرون[3] إلى الله تعالى)[4].

فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم. ومثَلهما مثل مَن لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحِمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص[5]: (الخوف سوط الله يُقوِّم به الشاردين عن بابه). وقال: (الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) الصعدات: الطرق، انظر: لسان العرب. مادة (صعد).

(٣) تجأرون: أي ترفعون أصواتكم بالدعاء. انظر: المصدر السابق، مادة (جأر).

(٤) رواه الترمذي في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (٩)، الحديث رقم (٢٣١٧)، ج٤/ص٥٥٦، وقال: "حديث حسن غريب". كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (١٩)، الحديث رقم (٤١٩٠)، ص٦٩٦. وقد حسنه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٥) عمرو بن سَلَم، وقيل عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري، شيخ خراسان، وأول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، توفي سنة ٢٦٤هـ . انظر: طبقات الصوفية – للسلمي، ص١١٥. وسير أعلام النبلاء – للذهبي، ج١٢/ص٥١٠ – ٥١٣، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.

هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هارب من ربه إلى ربه).

وقال أبو سليمان[1]: (ما فارق الخوف قلباً إلا خرب) . وقال إبراهيم بن سفيان[2]: (إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها). وقال ذو النون[3]: (الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق) "[4].

إذاً من حقائق (الخوف) عند ابن القيم: أن درجة هذا الخوف متوقفة على درجة معرفة العبد بربه وقربه منه، فكلما كان بالله سبحانه أعلم وإليه أقرب كان أشد خوفاً منه وخشية، والعكس صحيح أيضاً. ويؤكد ابن القيم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، فيقول: "... وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد – وقيل بن عطية – العنسي الداراني، أبو سليمان، الإمام الزاهد، له كلام رفيع في التصوف والمواعظ، توفي سنة ٢٠٥هـ، وقيل ٢١٥هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٧٥. وشذرات الذهب، ج٢/ص١٣. ووفيات الأعيان- لابن خلكان، ج٣/ص١٣١، تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار صادر – بيروت.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) ثوبان بن إبراهيم، وقيل ابن الفيض بن إبراهيم، من كبار الصوفية، كان حكيماً فصيحاً، توفي سنة ٢٤٥هـ. انظر: البداية والنهاية، ج١٠/ص٣٦٢. وشذرات الذهب، ج٢/ص١٠٧.

(٤) مدارج السالكين، ج١/ص٣٨٦ – ٣٨٨.

كأزيز المرجل من البكاء[1]،[2] وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[3] ، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: (وكفى بخشية الله علماً). ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً"[4].

ويقول أيضاً: "إن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد"[5].

ومن حقائق (الخوف) عند ابن القيم: أن الخوف شرط في تحقق الإيمان ولازم من لوازمه، حيث يقول - رحمه الله -: " أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[6] ، فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوفُ شرطٌ في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمانَ سببُ الخوف

(١) أي أن جوفه يجيش ويغلي بالبكاء. انظر: لسان العرب، مادة (أزز).

(٢) رواه أبو داود في سننه من حديث مطرف بن عبد الله رضي الله عنه في كتاب (الصلاة)، باب (البكاء في الصلاة)، الحديث رقم (٩٠٤)، ج١/ص٢٣٨، ط دار إحياء السنة النبوية – القاهرة. ورواه النسائي في سننه في كتاب (السهو)، باب (البكاء في الصلاة)، ج٣/ص١٣، ط دار التراث العربي – بيروت. كما رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (١٦٣١٢)، ج٢٦/ص٢٣٨. وقال محققوا المسند: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

(٣) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٤) طريق الهجرتين، ص٥١١.

(٥) المصدر السابق، ص٥١٥ – ٥١٦.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أن حصول السبب موجبٌ لحصول مسببه، فانتفاءُ الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاءٌ للمشروط عند انتفاء شرطه. وانتفاءُ الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاءٌ للمعلول عند انتفاء علته، فتدبره... والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[1] ، وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[2] ، فالرغب: الرجاء والرغبة. والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين أَمَّنهم من عذابه ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[3] "[4].

ومن حقائق (الخوف) أيضاً: أنه لا يصلح إلا لله وحده، يقول ابن القيم: " وأما الخشية والمخافة فلا تصلح إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[5]، وقال ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[6]، وقال

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

(٣) سورة النحل، الآية ٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص٥٠٩ – ٥١٠.

(٥) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

فالخوف عبودية القلب فلا تصلح إلا لله، كالذل والمحبة والإنابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب"[2].

منشؤ الخوف :

ويحدد ابن القيم منشأ (الخوف) عند العبد، فيقول: "وهو ينشأ من ثلاثة أمور:
أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.
والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.
والثالث: أنه لا يعلم لعله يُمنع من التوبة ويُحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب"[3].

القدر الواجب من الخوف :

كما يحدد القدر الواجب من الخوف، فيقول: " الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط،... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله"[4].

ويبين – رحمه الله – أن ثمرة (الخوف) هي: الأمن التام الدائم في الآخرة، حيث يؤكد على أن الخوف في الدنيا أنفع للعباد الخائفين، " فبه وصلوا إلى

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٨.
(٢) المصدر السابق، ص٥٢٧.
(٣) المصدر السابق، ص٥١١.
(٤) مدارج السالكين، ج١/ص٣٨٨.

الأمن التام، فإن الله سبحانه لا يجمع على عبده مخافتين اثنتين، فمن خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، ومن أمنه في الدنيا و لم يخفه أخافه في الآخرة. وناهيك شرفاً وفضلاً بمقامٍ ثمرته الأمنُ الدائم المطلق"[1].

---

(١) طريق الهجرتين، ص٥٢٨.

المبحث الرابع: الزهد:

الزهد مقام رفيع دعا إليه الكتاب والسنة، وعمل به سلف الأمة[1]، وأشاد بفضله الأئمة[2]، ومنهم الإمام ابن القيم – رحمه الله –، حيث نجده يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية الواردة في التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها وزوالها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، فيقول: " قال الله تعالى ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[3]، وقال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ

---

(١) كان سلف الأمة من الصحابة والتابعين مضرب المثل في الزهد بالدنيا. وللاطلاع على أخبارهم في ذلك راجع كلاً من: الزهد – لأحمد بن حنبل، ص١٣٥ وما بعدها، ط الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية – بيروت. وصفة الصفوة – لابن الجوزي ج١/ص٢٨٤،٣١٤ – ٣١٨، ٤٩١، ٥٣٨، ط دار الوعي بحلب . ومع المسلمين الأوائل في نظرهم للحياة والقيم – للدكتور مصطفى حلمي، ص٢٣ – ٩٧، ط الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، دار الدعوة – الإسكندرية. وصفحات مشرقة من حياة السابقين – لنذير مكتبي، ص٩٩ – ١١٢، ط الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، دار البشائر الإسلامية – بيروت.

(٢) ومن ذلك على سبيل المثال: قول الإمام الشافعي: " عليك بالزهد فإن الزهد على الزاهد أحسن من الحلي على الناهد ". فيض القدير شرح الجامع الصغير – للمناوي، ج٤/ص٧٣، ط الأولى ١٣٥٦هـ – ١٩٣٨م، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

(٣) سورة النحل، الآية ٩٦.

﴿ ٢٠ ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية[2]،... وقال تعالى ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[3]، وقال تعالى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، وقال ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾[5]، وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[6] ..."[7]

تعريف الزهد وبيان حقيقته :

يورد ابن القيم أقوال العلماء من السلف وأرباب السلوك في تعريف (الزهد) وبيان حقيقته، ومن ذلك قوله - رحمه الله -: " سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: (الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة)، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٠.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية ٧٧.

(٤) سورة الأعلى، الآيتان ١٦ – ١٧.

(٥) سورة طه، الآية ١٣١.

(٦) سورة الكهف، الآيتان ٧ – ٨.

(٧) مدارج السالكين، ج٢/ص٩.

وقال سفيان الثوري[1]: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء)...

وقال ابن الجلاء[2]: (الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك ويسهل عليك الإعراض عنها)...

وقيل: (هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف)...

وقال عبد الواحد بن زيد[3]: (الزهد: الزهد في الدنيا والدرهم).

وقال أبو سليمان الداراني: (ترك ما يشغل عن الله)، وهو قول الشبلي[4].

وسأل رُويم[5] الجنيد عن الزهد ؟ ، فقال: (استصغار الدنيا ومحو آثارها

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والزهد والتقوى، توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ. انظر: وفيات الأعيان – لابن خلكان، ج٢/ص٣٨٦ – ٣٩١. وتهذيب التهذيب – لابن حجر، ج٤/ص١١١، ط دار صادر – بيروت.

(٢) أحمد بن يحيى ابن الجلاء البغدادي، أبو عبد الله، عالم ورع من أكابر مشائخ الصوفية في زمانه، توفي سنة ٣٠٦هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٧٦. وحلية الأولياء – لأبي نعيم الأصفهاني، ج١٠/ص٣١٤، ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عبيدة، الزاهد القدوة، شيخ العباد وواعظهم، حدّث عن الحسن وعطاء بن أبي رباح وغيرهما، توفي بعد سنة ١٥٠هـ. انظر: صفة الصفوة – لابن الجوزي، ج٣/ص٣٢١ – ٣٢٥ . وسير أعلام النبلاء، ج٧/ص١٧٨ – ١٨٠.

(٤) أبو بكر دلف بن جحدر – وقيل ابن جعفر – الشبلي، الخراساني الأصل، البغدادي المولد والمنشأ، مالكي المذهب، صحب الجنيد وطبقته، توفي سنة ٣٣٤هـ. انظر: طبقات الأولياء – لابن الملقن، ص٢٠٤، تحقيق: نور الدين شريبة، ط الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، مكتبة الخانجي – القاهرة. وشذرات الذهب، ج٢/ ص٣٣٨.

(٥) رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي، أبو الحسن، الإمام الفقيه المقرئ، والزاهد العابد، أحد فقهاء الظاهرية، توفي سنة ٣٠٣هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٨٠. وسير أعلام النبلاء، ج١٤/ص٢٣٤ – ٢٣٥.

من القلب)، وقال مرة: (هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التتبع).

وقيل: (حقيقته هو الزهد في النفس)، وهذا قول ذي النون المصري... وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين)، وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام...

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن[1] أو غيره: (ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أُصبتَ بها – أرغب منك فيها لو لم تصبك)، فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه، وقد روي مرفوعاً"[2].

أقسام الزهد ومراتبه :

ويفصل ابن القيم القول في بيان أقسام الزهد ومراتبه والأمور التي تصححه، فيقول: " الزهد على أربعة أقسام[3]:

أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخلَّ به انعقد سببُ العقاب، فلابد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده.

---

(١) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، تابعي فقيه فاضل مشهور، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٤/ص٥٦٣. وتقريب التهذيب – لابن حجر، ص١٦٠، ط الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، دار الرشيد – حلب.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص١٠ – ١٢.

(٣) يجدر التنبيه هنا إلى أن ابن القيم ذكر في البداية أن الزهد على أربعة أقسام، ثم ذكر ثلاثة أقسام فقط.

الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات من الاستحباب بحسب المزهود فيه، وهو الزهدُ في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهدُ الدّاخلين في هذا الشأن، وهم المشمِّرون في السير إلى الله، وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس تخلّيها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها، وإنما المرادُ إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت في يده، فليس الزهدُ أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهدُ أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يُضرب بزهده المثلُ مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها...

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالى فيها ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾[1] ...

وسماها سبحانه (متاع الغرور) ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذمَّ من رضي بها واطمأن إليها. وقال

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٠.

النبي ﷺ : (ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها)[1]...

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ : (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع)[2]...

الثالث: معرفة أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كُتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يُقضَ له منها، فمتى تيقّن ذلك وصار لَهُ به علمٌ يقين هان عليه الزهدُ فيها...

النوع الثاني: الزهدُ في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقها. وأكثرُ الزاهدين إنما وصلوا إليه و لم يلجوه، فإن الزاهد يسهل عليه الزهد في الحرام لسوءِ مغبَّته وقبح ثمرته، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه، وإيثاراً لِلذَّة والنعيم على العذاب، وأَنفةً من مشاركة الفُسَّاق والفجرة، وحميةً من أن يستأثر لعدوه.

ويُسهِّل عليه الزهد في المكروهات وفضول المباحات: علمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم.

ويُسهِّل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءَها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الأعلى. وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين، وهو نوعان :

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٣٧٠٩)، ج٦/ص٢٤١ – ٢٤٢، وقال محققوا المسند: "حديث صحيح". وروى نحوه كل من الترمذي في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (٤٤)، الحديث رقم (٢٣٨٢)، ج٤/ص٥٨٨ – ٥٨٩، وقال: "حديث حسن صحيح". وابن ماجه في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (٣)، الحديث رقم (٤١٠٩)، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، باب (فناء الدنيا)، ج١٧/ص١٩٢.

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن تميتها فلا يبقى بها عندك من القدر شيء، فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها، قد سَبَّلْتَ[1] عرضـــها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهونُ عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعتك، أو تكرمها إذا عصتك، أو تغضب لها إذا ذُمَّت، بل هي عندكَ أَخسُّ مما قيل فيها. أو ترفّهها عما فيه حظّك وفلاحك وإن كان صعباً عليها.

وهذا وإن كان ذبحاً لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها فهو: عـــينُ حياتهـــا وصِحَّتها ولا حياة لها بدون هذا البتة. وهذه العقبةُ هي آخرُ عقبة يشرف منها على منازل المقربين، وينحدر منها إلى وادي البقاء ويشرب من عـــين الحيـــاة، ويُخلِّص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات، وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق...

والنوع الثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها للمحبوب جُملـــةً بحيـــث لا يستبقي منها شيئاً، بل يزهدُ فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبةُ محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبةً في إمساك ذلك القـــدر وحبســـه عـــن محبوبه؟ ، فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسلَّمها لربه، فهو يبذلها له دائماً بتعرُّضٍ منه لقبولها.

وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادٍ ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب، فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعنِّت مـــثمن كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلَّم"[2].

(١) أي أبحته وجعلته في سبيل الله. انظر: لسان العرب – لابن منظور، مادة (سبل).

(٢) طريق الهجرتين، ص٤٥٣ – ٤٥٨.

المبحث الخامس: الرجاء:

حقيقة الرجاء والفرق بينه والتمني:

" (الرجاء) حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة ويطيِّب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى"(١).

والفرق بينه والتمني – في نظر ابن القيم -: " أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل"(٢).

ويؤكد ابن القيم على هذا الفرق الدقيق، فيقول: " الفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز. والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾(٣)، فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء"(٤).

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٨.

(٤) الروح، ص٣٣٠ – ٣٣١، وراجع ص٣٣٢ – ٣٣٣، بتحقيق: محمد اسكندر يلدا، ط الثالثة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية – بيروت.

قيمة الرجاء وفضله :

ويبين ابن القيم قيمة (الرجاء) وفضله وعلو منزلته، فيقول: " هو من أجلِّ منازلهم وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم، فقال ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾[1] . وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل - (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي)[2]، وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) رواه مسلم[3]. وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالى ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا**

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٢) رواه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب (الدعوات)، الباب (٩٨)، الحديث رقم (٣٥٤٩)، ج٥/ص٥٤٨، وقال: "حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه". وروى نحوه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه، الحديث رقم (٢١٥٠٥)، ج٣٥/ص٣٩٨ - ٣٩٩. وقال محققوا المسند: "حديث حسن".

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (الحث على ذكر الله تعالى)، ج١٧/ص٢ - ٣.

تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾[1]، يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعوهم من دوني هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تدعوهم من دوني ؟ ، فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء"[2].

ويقول أيضاً عن (الرجاء): " هو عبودية وتعلق بالله من حيث اسمه (المحسن البَرُّ)، فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات، ولي من أبيات :

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسراً وتمزقاً
وكذاك لولا برده بحرارة الـ	أكباد ذابت بالحجاب تحرقاً
أيكون قط حليف حب لا يُرى	برجائه لحبيبه متعلقاً ؟!
أم كلما قويت محبته له	قوي الرجاء فزاد فيه تشوقاً
لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقاء"[3]

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٥٦ — ٥٧.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٣١.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ص٣٢.

ويقول أيضاً: " الرجاء ضروري للمريد السالك والعارف، لو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها"[1].

أنواع الرجاء :

ويبين – رحمه الله – أن " الرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم. فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه. ورجاء رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجاء رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب"[2].

ويرى " أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

والثاني: خوفه من فواته.

والثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان"[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ص٢٨.

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص٣٩، ط الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، بدون ذكر الناشر.

الجمع بين مقامي الخوف والرجاء :

كما يرى أنه ينبغي للسالك أن يجمع بين مقامي الخوف والرجاء، وأن يُغلّب الخوف في حال الصحة، ويُغلّب الرجاء في حال دنو الأجل، ومما قاله في هذا الشأن قوله: "القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف"[(١)]، " وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول – قبل موته بثلاث –: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) [(٢)]"[(٣)].

فوائد الرجاء:

ويبين أن للرجاء فوائد كثيرة، " منها :

١- إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٢- أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أَجود من سُئل وأَوسع من أَعطى. وأحب ما إلى الجواد: أن

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ص٣٩٠.

(٢) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي، كتاب (الجنة وصفة نعيمها وأهلها)، باب (الأمر بحسن الظن بالله عند الموت)، ج١٧/ ص٢٠٩.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٧.

يُرجَى ويُؤمل ويُسأل، وفي الحديث: "من لم يسأل الله يغضب عليه"[1]. والسائل راج وطالب، فمن لم يرج الله يغضب عليه.

٣-أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٤-أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى وشكراً له ورضى به وعنه.

٥-أنه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

٦-أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها، داع بها، قال تعالى ﴿ **وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا** ﴾[2] ...

٧-أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج...

٨-أن العبد إذا تعلّق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب

---

(١) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب (الدعوات)، الباب (٢)، الحديث رقم (٣٣٨٢)، ج٥/ص٤٥٦. وروى نحوه ابن ماجه في سننه في كتاب (الدعاء)، الباب (١)، الحديث رقم (٣٨٢٧)، ص٦٣٠. وقد حسَّنه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

والحِكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

٩- أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضى والإنابة وغيرها. ولهذا قدَّر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف"[١].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٨ – ٣٩ بتصرف يسير.

المبحث السادس: المراقبة:

حقيقة المراقبة :

المراقبة: دوام علم العبد السالك الطريق إلى الله بأنه سبحانه مطّلع على ظاهره وباطنه؛ ناظر إليه؛ سامع لقوله. " قال تعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾[2]، وقال تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[3]، وقال تعالى ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾[4]، ... وقال تعالى ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾[5]،... وفي حديث جبريل عليه السلام أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان ؟ ، فقال له: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [6] "[7].

يقول ابن القيم: " المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله، وهو مطّلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَس وكل طرفة عين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٢.

(٣) سورة الحديد، الآية ٤.

(٤) سورة العلق، الآية ١٤.

(٥) سورة غافر، الآية ١٩.

(٦) رواه مسلم في صحيحه في كتاب (الإيمان)، باب (الإيمان والإسلام والإحسان)، ج١/ص١٥٧.

(٧) مدارج السالكين، ج٢/ص٤٩.

وقيل: (من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه).

وقال الجنيد: (من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير).

وقال ذو النون: (علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغّر الله).

وقيل: (المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة).

وقال إبراهيم الخواص[1]: (المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل).

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

والمراقبة: هي التعبد بأسمائه (الرقيب) و(الحفيظ) و(العليم) و(السميع) و(البصير)، فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها حصلت له المراقبة"[2].

---

(١) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، أبو إسحاق، من مشايخ الصوفية، ومن أقران الجنيد، توفي بالري سنة ٢٩١. انظر: طبقات الصوفية، ص٢٨٤. وصفة الصفوة – لابن الجوزي، ج٤/ص٩٨ – ١٠٢.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٤٩ – ٥٠، بتصرف يسير.

المبحث السابع: الإخلاص:

تعريف الإخلاص وبيان حقيقته:

يذكر ابن القيم أقوال العلماء السالكين المحققين في تعريف هذا المقام العظيم وبيان حقيقته، حيث يقول: " هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل: (تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين)...، وقيل: (الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن)...، وقيل: (هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق)...، ومن كلام الفضيل[1]: (ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما).

وقال الجنيد: (الإخلاص سر بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله). وقيل لسهل[2]: أي شيء أشد على النفس؟، فقال: (الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب). وقال بعضهم: (الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله ولا مجازياً سواه). وقال مكحول[3] : (ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، الإمام الزاهد المشهور، توفي سنة ١٨٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٨/ص٣٧٢. وتقريب التهذيب، ص٤٤٨.

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد، الصوفي الزاهد، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة، وقدم راسخة في منازل السير إلى الله، توفي سنة ٢٨٣هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٢٠٦. وسير أعلام النبلاء، ج١٣/ص٣٣٠ - ٣٣٣.

(٣) مكحول بن أبي مسلم الهذلي، أبو عبد الله، فقيه الشام في عصره، ومن حفاظ الحديث، أصله من كابل، توفي بدمشق سنة ١١٢هـ، وقيل سنة ١١٣هـ. انظر: تذكرة الحفاظ - للذهبي، ج١/ ص١٠٧ - ١٠٨، وتهذيب التهذيب، ج١٠/ص٢٨٩.

لسانه)... وقال أبو سليمان الداراني: (إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء) "[1].

ويقول – رحمه الله – في بيان طبيعة (الإخلاص): " لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار... فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص"[2].

قيمة الإخلاص وأهميته :

ويقول في بيان قيمة (الإخلاص) وأهميته والنصوص الواردة فيه: " قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[3]، وقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[4]، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾[5]، وقال له: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٦٩ – ٧٠.

(٢) الفوائد، ص١٨٧.

(٣) سورة البينة، الآية ٥.

(٤) سورة الزمر، الآيتان ٢ – ٣.

(٥) سورة الزمر، الآيتان ١٤ – ١٥.

وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1]، وقال ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2]، قال الفضيل بن عياض: (هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه ؟ ، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة)، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[3]. وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[4]، فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسول الله ﷺ وسنته. وقال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[5]، وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أُريد بها غير وجه الله. قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (إنك لن تُخَلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى إلا ازددت به خيراً ودرجة ورفعة)[6]، وفي الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (ثلاث لا يَغلُّ عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢ – ١٦٣.

(٢) سورة الملك، الآية ٢.

(٣) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٤) سورة النساء، الآية ١٢٥.

(٥) سورة الفرقان، الآية ٢٣.

(٦) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (مناقب الأنصار)، الباب (٤٩)، الحديث رقم (٣٩٣٦)، ج٧/ص٢٦٩. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الوصية)، ج١١/ص٧٦ – ٧٩.

دعوهم تحيط من ورائهم)[1]، أي لا يبقى فيه غِلٌ ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة ؛ بل تنفي عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل رياءً ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية، أي ذلك في سبيل الله ؟ ، فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله)[2]. وأخبر عن أول ثلاثة تُسعَّر بهم النار: قارئ القرآن والمجاهد والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله[3]. وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء)[4]...، وفي الصحيح عنه ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه في باب (من بلَّغ علماً)، الحديث رقم (٢٣٠)، ص٥٨. وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الجهاد)، الباب (١٥)، الحديث رقم (٢٨١٠)، ج٦/ص٢٧ – ٢٨. ورواه مسلم فئي صحيحه في كتاب (الإمارة)، باب (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)، ج١٣/ص٤٩.

(٣) الحديث رواه الترمذي في سننه في كتاب (الزهد)، باب (ما جاء في الرياء والسمعة)، الحديث رقم (٢٣٨٧)، ج٤/ص٥٩١ – ٥٩٣، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب (الزهد)، باب (تحريم الرياء)، ج١٨/ص١١٥، ولفظه عنده: "من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[1]، وقــال تعــالى ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[2] "[3].

آفات الإخلاص وكيفية التخلص منها :

ويحدد ابن القيم آفات (الإخلاص) ويبين كيفية التخلص منها، فيقــول :

" يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات :

١- رؤيته وملاحظته.

٢- وطلب العوض عليه.

٣- ورضاه به وسكونه إليه.

فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عملَه مشيئةُ الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[4]، وأن الخير الذي يصدر من النفس البشرية إنما هو من الله وبه، لا من العبد ولا به، كما قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[5]، وقال أهل الجنة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا ﴾[6]، وقال تبارك وتعــالى لرســوله ﷺ :

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (تحــريم ظلــم المســلم وخذلــه واحتقاره)، ج١٦/ص١٢١.

(٢) سورة الحج، الآية ٣٧.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ص٦٨ – ٦٩.

(٤) سورة التكوير، الآية ٢٩.

(٥) سورة النور، الآية ٢١.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٤٣.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الآية[2]، فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنَّته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله. فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه.

والذي يخلّصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه، لا معاوضة، إذ الأجرة إنما يستحقها الحر أو عبد الغير، أما عبد نفسه فلا.

والذي يخلّصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران :

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره في عمله، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان. فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته ؟ ، فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[3]، فإذا كان هذا التفاوتُ طَرْفه أو لحظه، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله ؟ ، هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الأذان)، الباب (٩٣)، الحديث رقم (٧٥١)، ج٢/ص٢٣٤.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحي من مقابلة الله بعمله"[١].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٧٠ - ٧٢، بتصرف يسير.

المبحث الثامن : الاستقامة :

مفهوم الاستقامة :

الاستقامة كما يقول ابن القيم : " كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، وتتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله"[(1)].

أهمية الاستقامة وأقوال علماء السلف فيها :

وللاستقامة أهمية كبيرة يدل عليها قول ابن القيم: " قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[(2)]، وقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[(3)]، وقال لرسوله ﷺ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[(4)]، فبيَّن أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء. وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٨٠.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآيتان ١٣ – ١٤.

(٤) سورة هود، الآية ١١٢.

﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾[2] ...

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم)[3]... قال بعض العارفين: (كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالب بالاستقامة). وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: (أعظم الكرامة لزوم الاستقامة)...

وكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد، وكما أن حياة الأحوال بها، فزيادة أعمال الزاهدين أيضاً وربوها وزكاؤها بها، فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها"[4].

ويُورد ابن القيم أقوال علماء السلف – رضي الله عنهم ورحمهم – في الاستقامة المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ ﴾[5] فيقول: " سُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة ؟ ، فقال: (أن لا تشرك بالله شيئاً)، يريد الاستقامة

---

(١) سورة فصلت، الآية ٦.

(٢) سورة الجن، الآيتان ١٦ – ١٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الإيمان)، باب (جامع أوصاف الإسلام)، ج٢/ص٨ – ٩.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص٧٩ – ٨١.

(٥) سورة الجن، الآية ١٦.

على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب).

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (استقاموا: أخلصوا العمل لله).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما: (استقاموا: أدوا الفرائض).

وقال الحسن: (استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته).

وقال مجاهد[1]: (استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله).

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: (استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة) "[2].

الطريق الموصل إلى الاستقامة :

ويحدد – رحمه الله – الطريق الموصل إلى الاستقامة، فيقول: " قاعدة في ذكر طريق قريب يُوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان: **أحدهما**: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإن تمكّن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، مولى السائب المخزومي، من كبار التابعين، وأمام في العلم والتفسير، ت سنة ١٠١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٤/ص٤٤٩. وتقريب التهذيب، ص٥٢٠.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٧٩.

الأعمال. ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجدُ العبدُ نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرطُ إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس فلما تمكّنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلتَ: فما الطريق إلى حفظ الخواطر ؟ ، قلتُ: أسباب عدة :

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بتفاصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهبُ به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلقى للطائر ليُصاد به، فاعلم أن كل خاطرٍ منها فهو حبَّة في فخّ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمحبة والمعرفة فأخرجتها واستوطنت مكانها ؟ ، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن تعلم أن تلك الخواطر بحرٌ من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلاً، فقلبٌ تملكه الخواطرُ بعيدٌ من الفلاح معذبٌ مشغولٌ بما لا يفيد.

العاشر: أن تعلم أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها، وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسُقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها الملك في سلطانه، واستقامت له رعيته...

الثاني[١]: صدق التأهب للقاء الله عز وجل، وهذا من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت في نفسه نيران الشهوات، وأخبتَ قلبه إلى ربه تعالى، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته"[٢].

ويقول أيضاً في موضع آخر: " استقامة القلب بشيئين :

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا

---

(١) هذا هو الشيء الثاني في الطريق الموصل إلى الاستقامة.

(٢) طريق الهجرتين، ص٣١٦ – ٣٢٠.

تعارض حب الله تعالى وحب غيره، سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه، وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثر ما يقدِّم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيرهُ وأميرهُ وشيخهُ وأهلهُ على ما يحبه الله تعالى. فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملَكة المؤمَّرة عليها، ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص، جزاءً له على إيثاره هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى...

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظمه ولا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة[2].

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي، وهو: (أن لا يُعارضا بترخص جاف، ولا يُعارضا بتشديد غال، ولا يُحملا على علة تُوهن الانقياد).

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل: تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرفُ ربَّه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتِّباعه وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه

---

(١) سورة نوح، الآية ١٣.

(٢) هذا قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد والضحاك رحمهما الله. راجع: تفسير القرآن العظيم – لابن كثير، ج٤/ص٤٢٥، ط عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار المعرفة – بيروت.

دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر، فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتَّقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع على المناهي. فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي، ولا عن تعظيم الآمر الناهي.

فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفعلها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كما يحزن على فوت الجماعة، ويَعلم أنه لو تُقبِّلت منه صلاته منفرداً، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً. ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة سبعة وعشرون ديناراً، لأكل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى، فإذا فوَّت العبدُ عليه هذا الربح خسر قطعاً"[1].

(١) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، ص١٢ – ١٤، تحقيق: بشير محمد عون، ، ط السابعة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مكتبة دار البيان – دمشق.

المبحث التاسع: التوكل:

حقيقة التوكل وأهميته:

التوكل - كما يقول ابن القيم -: " نصف الدين، والنصف الثاني: الإنابة. فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها"[1].

وهو " من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، ... ولهذا فسَّره من فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله"[2]، ويُمثل حقيقة العبودية، فمن عزل نفسه عن مقام التوكل فقد عزلها عن حقيقة العبودية[3].

وهو" مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ... ومن لوازم الإيمان ومقتضياته"[4]، "فمن لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5] "[6]، " فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل،... وقال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[7]، فَذِكْرُ اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليلٌ على استدعاء الإيمان للتوكل،

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٨٦.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ص٩٥.

(٣) انظر: المصدر السابق، ج٢/ص٩٨.

(٤) طريق الهجرتين، ص٤٦٠.

(٥) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٦) مدارج السالكين، ج٢/ص٩٨.

(٧) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، فكما قوي إيمانُ العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل"[1].

وقد جمع الله في كتابه الكريم بين التوكل والإسلام، فقال سبحانه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾[2]، وجمع بين التوكل والتقوى، فقال سبحانه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[3]، كما جمع بين التوكل والهداية، فقال سبحانه لنبيه ﷺ (فتوكل على الله إنك على الحق المبين)[4][5].

ولذا فقد عني ابن القيم بهذا المقام أشد عناية، حيث نجده :

أ) يورد نماذج من الآيات القرآنية الواردة في الحث على التوكل، حيث يقول: " قال الله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[6]، وقال ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[7] وقال ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾[8]، وقال عن أوليائه ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[9]، وقال لرسوله ﷺ

---

(١) طريق الهجرتين، ص٤٦٠.

(٢) سورة يونس، الآية ٨٤.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان ٢ – ٣.

(٤) سورة النمل، الآية ٧٩.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص٤٦٠، ٤٦٢.

(٦) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٧) سورة إبراهيم، الآية ١١.

(٨) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٩) سورة الممتحنة، الآية ٤.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[1]، وقال لرسوله ﷺ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[2]، وقال له ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾[3]، وقال له ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[4]، وقال له ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[5]، وقال عن أنبيائه ورسله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾[6]، وقال عن أصحاب نبيه ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[7]، وقال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[8]"[9].

ب) ويورد جانباً من الأحاديث الصحيحة الواردة في الحث على التوكل، حيث يقول: " وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لا يسْترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون، وعلى ربهم

(١) سورة الملك، الآية ٢٩.

(٢) سورة النمل، الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء، الآية ٨١.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٥٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٦) سورة إبراهيم، الآية ١٢.

(٧) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

(٨) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٩) مدارج السالكين، ج٢/ص٨٥.

يتوكلون)[1]، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[2])[3]، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم لك أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكلتُ وإليك أنبتُ وبك خاصمتُ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والأنس يموتون)[4].

وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[5].

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : (من قال – يعني إذا خرج من بيته – بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الرقاق)، الباب (٥٠)، الحديث رقم (٦٥٤١)، ج١١/ص٤٠٥ – ٤٠٦. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الإيمان)، باب (الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب)، ج٣/ص٨٩ – ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب (التفسير)، الباب (١٣)، الحديث رقم (٤٥٦٣)، ج٨/ص٢٢٩.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب (التوحيد)، الباب (٨)، الحديث رقم (٧٣٨٥)، ج١٣/ص٣٧١. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (في الأدعية)، ج١٧/ ص٣٨ – ٣٩.

(٥) سنن الترمذي، كتاب (الزهد)، الباب (٣٣)، الحديث رقم (٢٣٤٩)، ج٤/ص٥٧٣، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الزهد)، الباب (١٤)، الحديث رقم (٤١٦٤)، ص٦٩٢. وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي..؟) [١] "[٢].

ج) ويبين أن العبد لا يستكمل مقام التوكل إلا بثمانية أمور، هي :

الأول: المعرفة بالرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثاني: إثبات الأسباب والمسببات، والأخذ بالأسباب مع عدم الركون إليها وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال بدنه قيامه بها، وحال قلبه قيامه بالله لا بها[٣].

الثالث: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

الرابع: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها. وعلامة هذا أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا

---

(١) رواه أبو داود في سننه في كتاب (الأدب)، باب (ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول)، الحديث رقم (٥٠٩٥)، ج٤/ص٣٢٥. ورواه الترمذي في سننه في كتاب (الدعوات)، الباب (٣٤)، الحديث رقم (٣٤٣٥)، ج٥/ص٤٩٠، وقال: "حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٨٥ – ٨٦.

(٣) لقد أكّد ابن القيم على ضرورة اعتماد القلب على الله وحده، مع فعل الأسباب الجالبة للمنافع والدافعة للمضار، وفَصَّل في هذه المسألة تفصيلاً جيداً. وللاستزادة فيها راجع كلاً من: الفوائد، ص١١٧ – ١١٨. والروح، ص٣٤٣ – ٣٤٥.

يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره، لأن اعتماده على الله وسكونه واستناده إليه قد حصَّنه من خوفها ورجائها.

الخامس: حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له يكون توكله عليه.

السادس: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته.

السابع: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء العبد أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرها واضطراراً.

الثامن: الرضا بالقدر، وهو ثمرة التوكل وأعظم فوائده، فمن وكَّلَ أموره إلى الله ورضي بما يقضيه له فقد حقق التوكل[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ص٩٠ – ٩٤.

المبحث العاشر: الصبر:

تعريف الصبر:

يورد ابن القيم أقوال العلماء في تعريف الصبر، فيقول: " سئل الجنيد بن محمد عن الصبر، فقال: (تجرع المرارة من غير تعبس)، وقال ذو النون المصري: (الصبر هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة)، وقيل: (الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب)، وقيل: (هو الفناء في البلوى بلا ظهور ولا شكوى)، وقيل: (تعويد النفس الهجوم على المكاره)، وقيل: (المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية)، وقال عمرو بن عثمان المكي[1]: (هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة)، وقال الخواص: (هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة)...، وقيل: (الصبر هو الاستعانة بالله) "[2].

ويُعرف الصبر فيقول: " الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش"[3].

---

(١) عمرو بن عثمان بن كرب المكي، أبو عبد الله، الزاهد المتصوف، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، توفي ببغداد سنة ٢٩١هـ، وقيل ٢٩٧هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٢٠٠. وشذرات الذهب، ج٢/ص٢٢٥.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص١٢٠. وانظر: عدة الصابرين، ص٢١، ط الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار المعرفة – بيروت.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ص١١٩.

أنواع الصبر:

يقسم ابن القيم الصبر – بوجه عام – إلى أقسام عدة باعتبارات مختلفة[1]. ولكن الذي يعنينا هنا هو تقسيماته للصبر بوصفه أحد مقامات السالكين ومنازل السائرين إلى الله سبحانه وتعالى، حيث يقسمه – رحمه الله – تارة إلى ثلاثة أنواع أو أقسام هي:

- صبر بالله.
- وصبر لله.
- وصبر مع الله.

"فالأول: الصبر بالله، وهو أول الاستعانة به سبحانه، ورؤيته أنه هو المصَبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ** ﴾[2]، يعني إن لم يُصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأغراض.

---

(١) فيقسمه باعتبار محله إلى قسمين: قسم بدني، وقسم نفساني. ويتفرع عن كل واحد منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام. راجع: عدة الصابرين، ص٢٧ – ٢٩.
ويقسمه باعتبار تعلق الأحكام به إلى خمسة أقسام: صبر واجب، وصبر مندوب، وصبر محظور، وصبر مكروه، وصبر مباح. راجع: المصدر السابق، ص٣٩ – ٤٠.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٧.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها"[١].

ويقسمه تارة ثانية باعتبار متعلقة إلى ثلاثة أقسام أيضاً :

الأول: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

والثاني: صبر عن المناهي والمخالفات أو المعاصي حتى لا يقع فيها.

والثالث: صبر على المحن والأقدار والمصائب والبلايا حتى لا يتسخطها[٢].

حكم الصبر وفضله :

الصبر في نظر ابن القيم " خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقُوام أمرها"[٣]، "وهو واجب بإجماع الأمة،وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر "[٤]، وهو "من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له "[٥]، " والإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه،

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص١٢٠. وراجع: عدة الصابرين، ص٥٢ – ٥٩.

(٢) انظر في هذا كلاً من: عدة الصابرين، ص٣٥. ومدارج السالكين، ج٢/ص١١٩. وطريق الهجرتين، ص٤٧٦.

(٣) عدة الصابرين، ص٢١.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص١١٥. وانظر: طريق الهجرتين، ص٤٧٤ – ٤٧٥.

(٥) مدارج السالكين، ج٢/ص١١٨.

وهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات"[1].

" والصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كمالُه الممكن إلا من ضعف صبره"[2]، " والصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الإيمان، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه، ولا يُذم منه إلا قسم واحد، وهو الصبر عن الله سبحانه، فإنه صبر المعرضين المحجوبين"[3].

فضائل الصبر :

عني ابن القيم ببيان فضائل الصبر الكثيرة والعظيمة، الواردة في كل من : القرآن الكريم، والسنة النبوية، وآثار سلف الأمة وأقوال علمائها.

أبينها – إن شاء الله – في ما يلي :

أ– فضائل الصبر في القرآن الكريم :

يقول ابن القيم: "قال الإمام أحمد رحمه الله: (ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً)" [4]، ويرى أن هذا الذكر إنما هو على ستة عشر وجهاً :

" الأول: الأمر به، نحو قوله تعالى **﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾**[5]، وقوله **﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾**[6] ، وقوله **﴿ ٱصْبِرُوا۟**

---

(١) عدة الصابرين، ص٧١. وانظر: ص١١٧.

(٢) طريق الهجرتين، ص٤٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص٤٨٣.

(٤) عدة الصابرين، ص٨١.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٥٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ٤٥.

وَصَابِرُوا﴾[١]، وقوله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[٢].

الثاني: النهي عن ضده، كقوله ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٣]، ... وقوله ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾[٤]، فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها، وقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾[٥]، فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٦] الآية، وقوله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٧]...

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم، كقوله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٨].

الخامس: إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، وليست معية عامة وهي معية العلم والإحاطة، كقوله ﴿وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٩]، وقوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١٠].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٧.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.

(٤) سورة محمد، الآية ٣٣.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٧.

(٧) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

(٨) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٩) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(١٠) سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]، وقوله ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[2].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[5].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[6]...

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[7].

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٦.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٥.

(٣) سورة النحل، الآية ٩٦.

(٤) سورة الزمر، الآية ١٠.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٥٥.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٢٥.

(٧) سورة الشورى، الآية ٤٣.

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[1]، وقوله ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالى لموسى ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[3]، وقوله في أهل سبأ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[4]، وقوله في سورة الشورى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[6].

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٠.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٥.

(٤) سورة سبأ، الآية ١٩.

(٥) سورة الشورى، الآيتان ٣٢ – ٣٣.

(٦) سورة الرعد، الآيتان ٢٣ – ٢٤.

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة في الدين، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة"[2]، كقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾[3]، وقوله ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[4]، وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[5]، وقوله ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[6]، وقوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[7]، وقوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[8] ، وقوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾[9] [10].

ب- فضائل الصبر في السنة النبوية :

يذكر ابن القيم مجموعة من الأحاديث الواردة في بيان فضائل الصبر،

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢٤.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص١١٦ – ١١٧ بتصرف يسير. وانظر: عدة الصابرين، ص٨١ – ٨٤.

(٣) سورة يوسف، الآية ٩٠.

(٤) سورة السجدة، الآية ٢٤.

(٥) سورة لقمان، الآية ٣١.

(٦) سورة البقرة، الآية ٤٥.

(٧) سورة هود، الآية ١١.

(٨) سورة العصر، الآية ٣.

(٩) سورة البلد، الآية ١٧.

(١٠) انظر: عدة الصابرين، ص٨٤ – ٨٥.

فنجده يقول: قال النبي ﷺ " (واعلم أن الصبر مع الصبر)[1]،... وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح (أنه ضياء)[2]، وقال: (من يتصبر يصبره الله)[3]، وفي الحديث الصحيح: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[4]، ... وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال: (ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصبر)[5] "[6].

ويقول: " وفي كتاب الأدب للبخاري (سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: الصبر والسماحة)[7]...، وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها. فإن النفس يراد منها شيئان :

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٢٨٠٣)، ج٥/ص١٨ – ١٩، وصححه محققوا المسند، كما صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٣٨٢)، ج٥/ص٤٩٦، ط عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر – الرياض.

(٢) روا ه مسلم في صحيحه في كتاب (الطهارة)، باب (فضل الوضوء)، ج٣/ص٩٩ – ١٠٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الزكاة)، الباب (٥٠)، الحديث رقم (١٤٦٩)، ج٣/ص٣٣٥. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الزكاة)، باب (فضل التعفف والصبر)، ج٧/ص١٤٤ – ١٤٥.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الزهد)، باب (في أحاديث متفرقة)، ج١٨/ص١٢٥.

(٥) تقدم تخريج طرفه آنفاً في الحاشية رقم (٣).

(٦) مدارج السالكين، ج٢/ص١١٧ – ١١٩. وانظر: عدة الصابرين، ص٩٣، وص ١٠١.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في (الصبر والثواب عليه)، ص٣٧، بتحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار ابن حزم – بيروت. ورواه الإمام أحمد في المسند من حديث عمرو بن عنبسة، ورجاله ثقات. انظر: الفتح الرباني، ج١/ص٧٤، ط دار الشهاب – القاهرة. وقال الألباني: إسناده صحيح ورجاله ثقات. راجع: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٣/ص٤٨٣.

١- بذل ما أُمرت به وإعطاؤه، فالحامل عليه: السماحة.

٢- وترك ما نهيت عنه والبعد منه، فالحامل عليه: الصبر"[١].

فقد تضمنت هذه الأحاديث النبوية فضائل عديدة هي :

- اقتران النصر بالصبر.
- وأن الصبر نبراس ينير معالم الطريق.
- وتوفيق الله عز وجل الصابرين.
- وأن الصبر خير عطاء أعطيه المؤمن وأوسعه.
- وتعريف الإيمان بالصبر والسماحة.

ج- فضائل الصبر في أقوال سلف الأمة وعلمائها :

نقل ابن القيم عن سلف الأمة وعلمائها العديد من الآثار والأقوال الـــتي تبين قيمة الصبر ومنـــزلته وفضله، ومن ذلك ما يلي :

١- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"[٢]، وقال أيضاً: " أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً"[٣]، وقال كذلك: "لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت"[٤].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص١٢٢.

(٢) عدة الصابرين، ص١٠٢. وقد أورد الإمام البخاري هذا الأثر في صحيحه في كتاب (الرقـــاق)، الباب (٢٠)، ج١١/ص٣٠٣.

(٣) عدة الصابرين، ص١٠٢. وانظر: مدارج السالكين، ج٢/ص١١٨.

(٤) عدة الصابرين، ص١٠٢.

٢- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد. ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له "[١]، وقال: " الصبر مطية لا تكبو "[٢].

٣- " وقال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر "[٣].

٤- " وقال سفيان بن عيينة[٤] في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[٥]، قال: (أخذوا برأس الأمر فجعلناهم رؤساء) "[٦].

٥- " وقال أبو علي الدقاق[٧]: (فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته، فإن الله مع الصابرين) "[٨].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص٢١، وص١٠٢. ومدارج السالكين، ج٢/ص١٢١.

(٣) عدة الصابرين، ص١١٥.

(٤) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي، كان حافظاً ثقة، واسع العلم، كبير القدر. توفي بمكة سنة ١٩٨هـ. انظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي، ج١/ص٢٦٢ – ٢٦٣، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت. ووفيات الأعيان – لابن خلكان، ج٢/ص٣٩١ – ٣٩٣.

(٥) سورة السجدة، الآية ٢٤.

(٦) مدارج السالكين، ج٢/ص١٢٢. وانظر: عدة الصابرين، ص١٠٢ – ١٠٣.

(٧) الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، أبو علي، عالم حليم، سار في الزهد والتصوف على نهج الجنيد بن محمد، توفي سنة ٤٠٥هـ. انظر: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية – لعبد الرؤوف المناوي، ج٢/ص٦٢ – ٦٣، ط مطبعة الزاوية التجانية – القاهرة.

(٨) مدارج السالكين، ج٢/ص١٢١.

٦- " وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: (بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين). ثم تلا قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١] "[٢].

الصبر والشكوى :

ينبه ابن القيم على ضرورة كف اللسان عن الشكوى، فإنه من لوازم الصبر. والمقصود هنا اجتناب الشكوى إلى المخلوقين، فهي مما يضاد الصبر وينافيه ويبطله، وإذا اشتكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولذا قال أحد المتقدمين :

"وإذا عَرتْك بَليةٌ فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلمُ

وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ"[٣]

إلا أنه لا يقدح في الصبر - كما يقول ابن القيم – إخبار المخلوق بالحال للاستعانة بإرشاده أو معاونته للتوصل إلى زوال ضرره، كإخبار المريض الطبيبَ بشكايته، وإخبار المظلوم من ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن يرجو أن يكون فرج الله على يديه ببلائه[٤].

وأما الشكوى إلى الله فلا تنافي الصبر، ولذا قال يعقوب عليه السلام

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ص١١٧.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ص١٢٣.

(٤) انظر: عدة الصابرين، ص٢٧٠.

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] مع قوله (فصبر جميل)، وقال أيـوب عليـه السلام شاكياً إلى ربه ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾[2] مع وصف الله له بالصبر[3].

الأسباب المعينة على الصبر:

يقول ابن القيم: " لما كان الصبر مأموراً به جعل الله سبحانه لـه أسـباباً تعين عليه وتوصّل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بـالأمر إلا أعـان عليـه، ونصب له أسباباً تمدّه وتعين عليه"[4].

وقد فصَّل – رحمه الله – في بيان هذه الأسباب، حيث جعل أسباباً تُعين على الصبر عن المعصية، وأخرى تُعين على الصبر على الطاعة، وثالثة تُعين على الصبر على المحن والمصائب. وسأوجز في ذكر هذه الأسباب، وذلك على النحو التالي :

أ) الأسباب المعينة على الصبر عن المعصية :

يقول ابن القيم: " الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة :

السبب الأول: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهـى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل.

السبب الثاني: الحياء من الله عز وجل، فإن العبد متى علم بنظره إليـه ومقامـه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع – وكان حيياً – اسـتحيى مـن ربـه أن

---

(١) سورة يوسف، الآية ٨٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٦.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ص١٢٣.

(٤) عدة الصابرين، ص٦٢.

يتعرّض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تُزيل النعم ولابد، فما أذنب عبدٌ ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله.

السبب الخامس: محبة الله سبحانه، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأَنفَتُها وحميّتها أن تختار الأسباب التي تحطّها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقّرها، وتسوِّي بينها وبين السَّفلَة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها والضرر الناشئ منها.

السبب الثامن: قصر الأمل، وعلم العبد بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوى الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات، فإنها تطلب لها مصرفاً فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام.

السبب العاشر: — وهو الجامع لهذه الأسباب كلها — ثباتُ شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان

إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر"[1].

ب) الأسباب المعينة على الصبر على الطاعة :

يقول ابن القيم: " والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب[2]، ومن معرفة ما تجليه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، ومن أقوى أسبابها: الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه"[3].

ج) الأسباب المعينة على الصبر على المحن والمصائب :

يقول ابن القيم: " الصبر على البلاء [والمحن] ينشأ من أسباب عديدة :

الأول: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مُقَدَّرة في أُمِّ الكتاب قبل أن يُخلق [المبتلى]، فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين.

الخامس: شهود ترتّبها عليه بذنبه، كما قال تعالى ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ** ﴾[4] ، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة،... قال علي بن أبي طالب: (ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة).

---

(١) طريق الهجرتين، ص٤٨٥ – ٤٩٥، بتصرف يسير. وراجع: عدة الصابرين، ص٦٢ – ٧٠.

(٢) يقصد – رحمه الله –: معرفة الأسباب المذكورة آنفاً في الصبر عن المعصية.

(٣) طريق الهجرتين، ص٤٩٦.

(٤) سورة الشورى، الآية ٣٠.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقَسَمَها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرّعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره، قال تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لأن يكون من أولياء الله وحزبه أم لا يصلح ؟ ، فإن صبر وثبت اصطفاه سبحانه واجتباه، وخَلَع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل. وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طُرد وأُقصي وتضاعفت عليه المصيبة.

العاشر: أن يعلم أن الله يُربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال. وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته"[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٩٨ – ٥٠١، بتصرف يسير.

المبحث الحادي عشر: الصدق:

قيمة الصدق ومكانته:

الصدق من أَجَلِّ مقامات السالكين إلى الله تعالى، ومن أهم منازل السائرين إليه، ولذا نجد ابن القيم يفصل القول في بيان قيمة هذه المنزلة ومكانتها وعلو شأنها، وفي إيراد النصوص الشرعية الواردة فيها وبيان مضامينها. حيث يقول – رحمه الله -: " هي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوى الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه، ولا واجَه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُرد صولته، ومن نطق به عَلَت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة (النبوة) التي هي أرفع درجات العالمين...

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٩.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، فهم الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2]، ولا يزال يُمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده؛ إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين...

وأخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق، فقال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[3]، وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان...

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[4]...

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مَدْخلَه ومَخْرَجه على الصدق، فقال ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

(٤) سورة المائدة، الآية ١١٩.

﴿مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ۝﴾[1]، وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝﴾[2]، وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق، فقال تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[3]، وقال ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝﴾[4]. فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله وفي مرضاته، بالظَّفَر بالبُغْية وحصول المطلوب. ضد مَخْرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة. وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار...

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٨٤.

(٣) سورة يونس، الآية ٢.

(٤) سورة القمر، الآيتان ٥٤ – ٥٥.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1]، والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاءً وفاقاً، وعَبَّر به عنه...

وأما قدم الصدق: فَفُسر بالجنة، وفُسر بمحمد ﷺ، وفُسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة (القدم): ما قدموه، وما يُقدمون عليه يوم القيامة. وهم قَدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويُقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك. فمن فسره بها أراد: ما يَقْدُمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ فلأنهم قَدَّموها وقدَّموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى"[2].

ويقول أيضاً: "إن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره ولا رب سواه"[3].

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٠.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٠٤ – ٢٠٧، بتصرف يسير.

(٣) طريق الهجرتين، ص٣٢١.

حقائق الصدق :

ويورد ابن القيم جملة من أقوال العلماء السالكين في بيان حقائق الصدق، ومن ذلك قوله: " قال عبد الواحد بن زيد: (الصدق الوفاء لله بالعمل). وقيل: (موافقة السر النطق). وقيل: (استواء السر والعلانية). وقيل: (القول بـالحق في مواطن الهلكة). وقيل: (كلمة الحق عند من تخافه وترجوه).

وقال إبراهيم الخواص: (الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه). وقال الجنيد: (حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب). وقال صاحب المنازل: (الصدق اسم لحقيقة الشيء بعينه حصولاً ووجوداً).

والصدق: هو حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة، إذا كانت قوية تامة، وكذلك: محبة صادقة، وإرادة صادقة. وكذا قولهم: حلاوة صادقة، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيء"[1].

ويرى أن" من علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي – مرفوعاً – من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)[2]"[3].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٠٨ – ٢١٣، بتصرف يسير.

(٢) رواه الترمذي في سننه في كتاب (صفة القيامة)، الباب (٦٠)، الحديث رقم (٢٥٢٣)، ج٤/ص٦٦٨، وقال: "وهذا حديث حسن صحيح".

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٠٧ – ٢٠٨.

المبحث الثاني عشر: الذكـر:

فضل الذكر وقيمته:

يقول ابن القيم - مبيناً فضل الذكر وقيمته وأسراره -: " الذكر: منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن مُنعَه عُزِل، وهو قوت قلوب القوم، الـذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلـت عنـه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، ومـاؤهم الـذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منـهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب:

إذا مرضـنا تـداوينا بـذكركم ... فنترك الذكر أحيانـاً فننـتكس

به يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصـيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويُوصل الذكر إلى المذكور؛ بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والـذكر عبوديـة القلـب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها...

زَيَّن الله به ألسنة الذاكرين كما زيَّن بالنور أبصار النـاظرين، فاللسـان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء. وهـو بـاب الله الأعظـم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، قال الحسن البصري رحمه الله:

(تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القــرآن، فــإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق).

وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان... وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه"[1].

ويقول كذلك: " والذاكرون هم أهل السبق، كمـا روى مسـلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فَمرَّ على جبل يقال لـه جُمْـدان فقـال: سيروا، هذا جمدان سبق المفَرِّدون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ ، قـال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) [2].

وفي المسند مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ، قالوا: ومـا ذاك يا رسول الله ؟ ، قال: ذكر الله عز وجل) [3]... ويكفي في شرف الذكر: أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه أن

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٣١٦ – ٣١٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (الحث على ذكر الله تعالى)، ج١٧/ص٤.

(٣) مسند الإمام أحمد، الحديث رقم (٢١٧٠٢)، ج٣٦/ ص٣٣ – ٣٤، وقد صحح محققوا المسـند إسناده. ورواه الترمذي في سننه في كتاب (الدعوات)، الباب (٦)، الحـديث رقـم (٣٣٨٦)، ج٥/ص٤٥٩. كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٣)، الحـديث رقـم (٣٧٩٠)، ص٦٢٥، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: (ما أجلسكم؟ ، قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام وَمنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ ، قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما أني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة)[1]...

وقال رجل لرسول الله ﷺ : إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فمرني بأمر أتشبث به، فقال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)[2].

وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ ليلة الإسراء أنه قال له: (أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[3]. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (مثل الذي يذكر ربه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)، ج١٧/ص٢٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (١٧٦٩٨)، ج٢٩/ ص٢٤٠ – ٢٤١، وقال محققوا المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات". ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٣)، الحديث رقم (٣٧٩٣)، ص٦٢٥، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن. كما رواه الترمذي في سننه في كتاب (الدعوات)، الباب (٤)، الحديث رقم (٣٣٨٤)، ج٥/ص٤٥٨، وقال: "حديث حسن غريب".

(٣) رواه الترمذي في سننه في كتاب (الدعوات)، الباب (٥٨)، الحديث رقم (٣٤٧١)، ج٥/ص٥١٠، وقال: "حديث حسن غريب".

والذي لا يذكره مثل الحي والميت)[1] "[2].

حقيقة الذكر وأنواعه :

يقسم ابن القيم الذكر إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

وهذا القسم نوعان :

الأول: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، وهذا النوع – كما يقول ابن القيم – هو المذكور في الأحاديث، نحو: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"، و"سبحان الله وبحمده"، و"لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"، ونحو ذلك، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه، نحو: "سبحان الله عدد خلقه"، فهذا أفضل من مجرد "سبحان الله".

الثاني: الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: "الله عز وجل يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم به من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيء قدير.

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب (الدعوات)، الباب (٦٦)، الحديث رقم (٦٤٠٧)، ج١١/ص٢٠٨، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (استحباب صلاة النافلة في البيت)، ج٦/ص٦٨.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٢٠ – ٣٢٢. وراجع: الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، في الصفحات: ٧٢ – ٨٣.

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى بـــه عليـــه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل. وهذا النـــوع أيضاً ثلاثة أنواع: حمدٌ، وثناءٌ، ومجدٌ.

فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضى به، فلا يكون المحب الساكت حامداً ولا الـــمُثني بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء. فإن كرر الحامد شيئاً بعد شيء كانت ثنـــاءً. وإن كـــان المـــدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول سورة الفاتحة، فإذا قـــال العبد (الحمد لله رب العالمين)، قال الله: حمدني عبـــدي، وإذا قـــال (الـــرحمن الرحيم)، قال: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال (مالك يوم الـــدين)، قـــال: مجَّـــدني عبدي[1].

القسم الثاني من قسمي الذكر الرئيسين: ذكـــر أمـــره ســـبحانه ونهيـــه وأحكامه.

وهو أيضاً نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحـــب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكره أمـــره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر. فإذا اجتمعت هـــذه الأنـــواع

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الصلاة)، باب (وجـــوب قـــراءة الفاتحة في كل ركعة)، ج٤/ص١٠١.

للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجلُّه وأعظمه فائدة.

فهذا الذكر من الفقه الأكبر، وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية.

ومن ذكره سبحانه وتعالى: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواضع فضله على عبيده، وهذا أيضاً من أجلّ أنواع الذكر.

فهذه خمسة أنواع. وهي تكون :

- بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر.
- وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية.
- وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر: ما تواطأ عليه القلب واللسان. وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويُهيِّج المحبة ويُثيرُ الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويَزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات. وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها فثمرة ضعيفة[1].

أوجه ورود (الذكر) في القرآن الكريم :

يقول ابن القيم: ورد (الذكر) في القرآن على عشرة أوجه هي :

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً، كقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

---

(١) انظر: الوابل الصيب، ص١٧٨ – ١٨١. وراجع: الفوائد، ص١٦٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان ٤١ - ٤٢.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[1].

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته، كقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعده الله لهم من الجنة والمغفرة، كقوله ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ﴾ – إلى قوله ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره، كقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4].

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، كقوله ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[5].

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء، كقوله تعالى ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الجمعة، الآية ١٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٥.

(٤) سورة المنافقون، الآية ٩.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

(٦) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، فقد ختم عمل الصيام بقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]، وختم به الحج في قوله ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[2]، وختم به الصلاة في قوله ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[3].

التاسع: الإخبار عن أهله بأهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأهم أولوا الألباب والعقول، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[4].

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فإنه سبحانه قرنه – مثلاً – بالصلاة، فقال ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[5]، وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبه ومقصوده، وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[6] [7].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

(٣) سورة النساء، الآية ١٠٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ – ١٩١.

(٥) سورة طه، الآية ١٤.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٤٥.

(٧) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ص٣١٧ – ٣٢٠.

فوائد الذكر:

ذكر ابن القيم للذكر نحو مائة فائدة. منها - على سبيل المثال - :

أنه يُرضي الرحمن ويطرد الشيطان ويقمعه، ويُزيل الهم والغم عن القلب ويجلب له الفرح والسرور، ويُنور الوجه والقلب، ويَجلب الرزق، ويُورث الذاكر المحبة والإنابة والمراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ويُورث الهيبة والإجلال لله تعالى، كما يُورث جلاء القلب من صداه، ويَحط الخطايا، ويُزيل الوحشة بين العبد وربه تبارك وتعالى، ويَجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته وعزومه، كما أن الاشتغال به سببٌ لعطاء الله للذاكر أفضل ما يُعطي السائلين[1].

(١) راجع: الوابل الصيب، في الصفحات: ٨٤ – ١٧٧.

المبحث الثالث عشر: المحبة :

أهمية منـــزلة (المحبة) وقيمتها :

المحبة في نظر ابن القيم " هي المنـــزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليهـــا شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمر السابقون، وعليها تفاني المحبـــون، وبِـــرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمـــان والأعمـــال والمقامـــات والاحوال التي متى خَلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمـــل أثقـــال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منـــازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتُبوِّؤهم من مقاعد الصدق مقامـــات لم يكونـــوا لولاها داخليها"[1]، "ولو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميـــع مقامـــات الإيمـــان والإحســـان، ولتعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقـــام ومنـــــزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمـــال كنســـبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هـــي نفـــس الإســـلام، فإنـــه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة..، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن (الإله) هو الذي يألهه العبـــاد حبـــاً وذلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعة له،بمعنى (مألوه)، وهو الذي تألهه القلـــوب، أي

---

(١) مدارج السالكين، ج٣/ص٧ – ٨.

تحبه وتذل له"[١].

ويضيف ابن القيم إلى ما سبق فيقول: " أعظم أنواع المحبة: محبة الله وحده ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها،... ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها"[٢]، " ومدار كتب الله تعالى المنزلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها... ولا يجد حلاوة الإيمان، بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان – وفي لفظ: لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث – من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يُلقى في النار)[٣]. وفي الصحيحين أيضاً عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[٤] "[٥]،

---

(١) المصدر السابق، ج٣/ص٢٢.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص١٩٩.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب (الإيمان)، الباب (٩)، الحديث رقم (١٦)، ج١/ص٦٠. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الإيمان)، باب (بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان)، ج٢/ص١٣.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب (الإيمان)، الباب (٨)، الحديث رقم (١٥)، ج١/ص٥٨. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (الإيمان)، باب (وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل)، ج٢/ص١٥.

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص٥٠٥.

" وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (يا رسول الله، والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: والذي بعثك بالحق لأنت أحب إليّ من نفسي. قال الآن يا عمر)[1]، فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه ؟ "[2].

أنواع المحبة :

يقسم ابن القيم المحبة إلى قسمين رئيسين :

- محبة نافعة، وهي أصل التوحيد والإيمان.
- ومحبة ضارة، وهي أصل الشرك.

ويُدرج تحت كل قسم من هذين القسمين ثلاثة أنواع من المحبة، فيكون المجموع ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق.

فنجده يقول: " المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله تعالى، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب (الإيمان والنذور)، الباب (٣)، الحديث رقم (٦٦٣٢)، ج١١/ص٥٢٣.

(٢) الجواب الكافي، ص١٩٩ – ٢٠٠.

فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق. فمحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها.

والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها"[١].

لوازم المحبة وعلاماها :

محبة الله تعالى ليست مجرد مقولة تُنال بالإدعاء، بل هي من أَجَلّ مقامات السالكين إليه سبحانه، لها لوازم وعلاقات تدل على أنها محبة صادقة ومقبولة عند الله تعالى.

ومن هذه اللوازم والعلامات التي ذكرها ابن القيم ما يلي :

١-توحيد الله وإفراده بجميع أنواع العبادة. وفي هذا يقول - رحمه الله - : " المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته. وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويَعدُّه كاذباً في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً صرف كل قوة المحبة إليه. فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال، ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يُشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"[٢]، " وأصل الشرك بالله: الإشراك في المحبة، كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ

---

(١) إغاثة اللهفان، ص٥١٢ – ٥١٣. وراجع كلاً من: الجواب الكافي، ص١٨٩ – ١٩٠. وروضة المحبين، ص٢٩٩، بتحقيق: الدكتور السيد الجميلي، ط الثامنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) الجواب الكافي، ص١٨٢.

ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1]، فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم... والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة"[2].

ويقول: " أصل المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها وخلق خلقه لأجلها هي محبته وحده لا شريك له، المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه. فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا لله عز وجل وحده... وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد الرب سبحانه بها، فلا يشرك العبد به فيها غيره"[3].

ويقول أيضاً: " وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى"[4].

٢-موافقة الله في اتباع ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه. وفي هذا يقول - رحمه الله -: " إن موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها، وليست نفس المحبة، بل المحبة تستدعي الموافقة، وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٨٨ - ١٨٩. وراجع: مدارج السالكين، ج٣/ص٢٥.

(٣) إغاثة اللهفان، ص٥٠٥ - ٥٠٦.

(٤) الجواب الكافي، ص١٩٩. وراجع ص٢٢٨.

قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] . قال الحسن : (قال قومٌ على عهد النبي ﷺ : إنا نحب ربنا فأنزل الله تعالى هذه الآية...)، وقال الجنيد: (ادعى قومٌ محبة الله فأنزل الله آية المحبة وهي ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2])، يعني أن متابعة الرسول هي موافقة حبيبكم، فإنه المبلّغ عنه ما يحبه وما يكره، فمتابعته موافقة الله في فعل ما يحب وترك ما يكره... وإنما كانت موافقة المحبوب دليلاً على محبته، لأن من أحب حبيباً فلابد أن يُحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه، وإلا لم يكن محباً له محبة صادقة، بل إن تخلَّف ذلك عنه لم يكن محباً له، وإنما يكون محباً لمراده ومشيئته أحبَّه محبوبه أم كرهه، ومحبوبه عنده وسيلة إلى ذلك المراد"[3].

٣-محبة القرآن الكريم – كلام الله – والالتذاذ بسماعه. وفي هذا يقول – رحمه الله – عن محبة العبد السالك لربه محبة تشغل قلبه وفكره: " هذه المحبة هي التي تُنوِّر الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب، وكذلك محبة كلام الله فإنها من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي ... أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

---

(١) (٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٣) طريق الهجرتين، ص٥٤٦ – ٥٤٧. وراجع: مدارج السالكين، ج٣/ص١٨.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله)، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه ؟"[1].

الأسباب الجالبة للمحبة :

يرى ابن القيم أن الأسباب الجالبة للمحبة النافعة المطلوبة والموجبة لها عشرة أسباب هي :

" أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة...

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى...

---

(١) الجواب الكافي، ص٢٣٥ – ٢٣٦.

الثامن: الخلوة به وقت النـــزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهـــم كمـــا ينتقى أطايب الثمر...

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل"[1].

---

(١) مدارج السالكين، ج٣/ص١٥ – ١٦.

الفصل الثاني

ضوابط قيم السلوك مع اللّه عند ابن القيم

الفصل الثاني

ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن القيم

يرى ابن القيم أنه لا يتأتى للسالك السير في الطريق إلى الله تعـالى، ولا يصح له ذلك إلا بالالتزام بشروط عديدة والانضباط بضوابط دقيقـة، يتمثـل أهمها في ما يلي :

أولاً: الإيمان بالله تعالى.

ثانياً: العبودية الخالصة لله تعالى.

ثالثاً: الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما.

رابعاً: متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به.

خامساً: تعلم العلم الشرعي.

سادساً: الالتزام بأداء التكاليف الشرعية.

سابعاً: اجتناب الذنوب والمعاصي.

وسأتناول – إن شاء الله – كل واحد من هذه الضوابط السبعة في مبحث مستقل، وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول: الإيمان بالله تعالى:

أول ما يجب على العبد ليصح سيره إلى الله تعالى: أن يكون مؤمناً به سبحانه، فالإيمان أساس الأعمال الصالحة وقاعدة بنيانها، " ومن أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان و لم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

والأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء"[2].

ويبين – رحمه الله – حقيقة هذا الأساس المتمثل بالإيمان فيقول:

" وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٩.

(٢) الفوائد، ص١٩٤.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء"[١].

ويؤكد على أنه لا يتحقق الإيمان إلا بتظافر أربعة أمور هي: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح، فنراه يقول: " حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان :

- قول القلب، وهو الاعتقاد.
- وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان :

- عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه.
- وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة.

وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرّون به سراً وجهراً ويقولون: ليس بكاذب ولكن لانتَّبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولاسيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي

---

(١) المصدر السابق.

هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت. ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد"[1].

ويقول أيضاً: " الإيمان له ظاهر وباطن. وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته. فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حُقن به الدماء وعُصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف وهلاك. فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوِّه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته.

فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه. وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول"[2].

ومدار الإيمان – في نظره – على أصلين اثنين :

أحدهما: التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ .

والثاني: طاعة أوامرهما.

ويتبع هذين الأصلين أمران هما :

- رد شبهات الباطل التي توحيها شياطين الجن والأنس في معارضة الخبر.
- ومجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وكمال الطاعة[3].

---

(١) كتاب الصلاة، ص٢٩ – ٣٠، ط الرابعة ١٤٠٧هـ، المكتبة القيمة – القاهرة.

(٢) الفوائد، ص١١٧.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة، ص١٩٥ – ١٩٦.

المبحث الثاني: العبودية الخالصة لله تعالى:

لابد للسالك أن يحقق العبودية التامة لله تعالى بأن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته وجميع أعماله لله لا شريك له، وأن يفرغ قلبه من عباده غير الله ويملؤه بعبادة الله وحده، فإذا حقق ذلك قَرُبَ من الله وغمره سبحانه بالرحمة والسعادة وأفاض عليه العلم، يقول سبحانه عن موسى وفتاه ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

يقول ابن القيم عن إخلاص العبادة لله: " هو الغاية التي شَمَّر إليها السالكون، وأَمَّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون...، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: (من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية). وقال بعض العارفين : (لا طريق أقرب إلى الله من العبودية) "[2].

ويقول أيضاً: لابد للسالك من " تكميل عبودية الله عز وجل في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله. وكمال عبودية العبد: موافقته لربه في محبته ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة لا للأمارة ولا للوامة، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له، فإنه بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف، ويكون ذلك قائماً

---

(١) سورة الكهف، الآية ٦٥.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ص٣٢٦.

بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، وهذا الدرب طريق آمن أكثر السالكين في غفلة عنه، وهو أيضاً طريقٌ سهلٌ قريبٌ موصلٌ، ولكنه يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به وإقداماً على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله. وليس عند أكثر الناس سوى رسومٌ تلقَّوها عن قوم معظَّمين عندهم، ثم لإحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم و لم يتجاوزوها فصارت حجاباً لهم وأي حجاب.

فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أُوتي خيراً كثيراً، ولا يُخاف عليه إلا من ضعف همته. فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقاً، واحد الناس في زمانه، لا يلحق شأوه غباره، فَشتَّان ما بين من يتلقَّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من يتلقَّاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئاً قال: هذا هو الحق.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجبٌ وفتحه عجب، صاحب قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرَّد عن سكنه ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[١] "[٢].

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٢) طريق الهجرتين، ص٣٩٣ – ٣٩٤.

ويعقد في كتابه (مدارج السالكين) فصلاً في (لزوم إياك نعبد لكل عبد إلى الموت)، يقول فيه: " قال الله تعالى لرسوله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝ ﴾[1]، واليقين هاهنا: الموت بإجماع أهل التفسير...، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لَمَّا يسأله المَلَكَان: من كان يعبد؟ ، وما يقول في رسول الله ﷺ ؟ ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً"[2].

ويبين ابن القيم قيمة (العبودية الخالصة لله)، وقدرها، فيقول: " جميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾، فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[3] ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[4] ، وقال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ

(١) سورة الحجر، الآية ٩٩.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ص٨٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٤) سورة النحل، الآية ٣٦.

﴿ ﴾[1] ، وقــال تعــالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

والله تعالى جعل (العبودية) وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه، فقــال ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[3] ، وقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[4] ....، وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾[5] ، وقال ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾[6] ، وقــال ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[7] ، وقال عن سليمان ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[8]، وقال عن المسيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[9] ، فجعل غايتــه العبودية لا الإلهية كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكــرم خلقــه عليــه وأعلاهم عنده منــزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾[10] ، وقال تبارك وتعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان ٥١ — ٥٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٧٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

(٥) سورة ص، الآية ١٧.

(٦) سورة ص، الآية ٤١.

(٧) سورة ص، الآية ٤٥.

(٨) سورة ص، الآية ٣٠.

(٩) سورة الزخرف، الآية ٥٩.

(١٠) سورة البقرة، الآية ٢٣.

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[1]، وقال ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[2]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾[3] فذكره بالعبودية في في مقام الدعوة إليه، وقال ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[4] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء...

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[5]، وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[6]، وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[7]، وقال ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[8].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ١.

(٢) سورة الكهف، الآية ١.

(٣) سورة الجن، الآية ١٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية ١.

(٥) سورة الزمر، الآيتان ١٧ — ١٨.

(٦) سورة الزخرف، الآيتان ٦٨ — ٦٩.

(٧) سورة الحجر، الآية ٤٢.

(٨) سورة النحل، الآيتان ٩٩ — ١٠٠.

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل - وقد سأله عن الإحسان - : (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] "[2].

والعبودية المطلوبة هنا: عبودية الطاعة والمحبة، لا عبودية القهر والملك والغلبة. ذلك أن العبودية في نظر ابن القيم نوعان: عبودية عامة، وعبودية خاصة.

" **فالعبودية العامة**: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى ﴿ **وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾** ﴾[3]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

والعبودية الخاصة : عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى ﴿ **يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾** ﴾[4]، وقال ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ**

(١) تقدم تخريجه في ص ٧٤.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ص٨٥ — ٨٧.

(٣) سورة مريم، الآيات ٨٨ — ٩٣.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٦٨.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1]، وقال ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[2]...

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء. وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

الأول: إما مُنكَّراً، كقوله ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[3].

والثاني: مُعَرَّفاً باللام، كقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[4].

الثالث: مقيداً بالإشارة ونحوها، كقوله ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾[5].

الرابع: أن يُذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[6].

الخامس: أن يُذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[7].

---

(١) سورة الزمر، الآيتان ١٧ – ١٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٣.

(٣) سورة مريم، الآية ٩٣.

(٤) سورة غافر، الآية ٤٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية ١٧.

(٦) سورة الزمر، الآية ٤٦.

(٧) سورة الزمر، الآية ٥٣.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: طريق مُعَبَّد، إذا كان مُذَللاً بوطء الأقدام.

وفلان عَبَّده الحب، إذا ذلله. لكن أولياء الله خضوا له وذَلّوا طوعاً واختياراً وانقياداً لأمره ونهيه. وأعدائه خضوا له قهراً ورغماً"[(1)].

وللعبودية – عند ابن القيم – مراتب بحسب العلم والعمل.

" أما مراتبها بحسب العلم فمرتبتان :

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

والعلم بالله سبحانه خمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان :

إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم: العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتب العبودية بحسب العمل فمرتبتان :

- مرتبة لأصحابها اليمين.
- ومرتبة للسابقين المقربين.

أما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع فعل المباحات وبعض المكروهات، وترك المستحبات.

---

(١) المصدر السابق، ج١/ص٨٨ – ٨٩.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمنـــدوبات، وتـــرك المحرمـــات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومَنْ دونهـــم يتـــرك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات.

ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله"[1].

---

(١) المصدر السابق، ج١/ص٩٠، بتصرف يسير.

المبحث الثالث: الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما:

لابد للسالك من الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة ليصح سيره إلى الله تعالى، وقد أكد ابن القيم على ذلك في العديد من كتبه، وعني به أشد عناية، ومن ذلك أنه :

أ) أورد بعض النصوص الشرعية الدالة على وجوب اتباع الكتاب والسنة، وبيَّن وجه دلالة كل منها على هذا الوجوب، فنراه يقول:

" قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1]، فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ولرسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخيَّر لنفسه غير ذلك فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً فدل على أن ذلك مناف للإيمان...

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2]، فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه،... فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته...

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٢) سورة النور، الآية ٥٤.

﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[1]، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بندائهم باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا وخوطبوا به...، ففي ذلك إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه. وتحت قوله سبحانه (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) سرٌّ لطيف، وهو: دلالته على أن ما يأمر به رسوله تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة. فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن لا تجب طاعته فيه، كما قال النبي ﷺ : (يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شيء اتّبعناه، ألا وإني أُوتيت الكتاب ومثله معه)[2]...

ثم قال تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾[3] ، وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى تحكيم غير

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) رواه أبو داود في سننه في كتاب (السنة)، باب (في لزوم السنة)، الحديث رقم (٤٦٠٤)، ج٤/ص٢٠٠. ورواه ابن عبد البر في التمهيد، ج١/ص١٤٩ - ١٥٠، بتحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري، ط الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. كما رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (١٧١٧٤)، ج٢٨/ص٤١٠، وقال محققوا المسند: "إسناده صحيح ورجاله ثقات".

(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.

الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يَرُدَّ كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله، ولهذا قال الله تعـالى ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ ، وهذا مما ذكرناه آنفاً شرطٌ ينتفي المشروط بانتفائه، فدلَّ على أن من حكَّم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النـزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر،... وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو: الرد إليه في حياتـه، والـرد إلى سنته بعد وفاته. ثم قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلاً ﴾ ، أي: هـذا الـذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولي الأمر، ورد ما تنازعتم فيـه إليَّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خـير لكم وأحسن عاقبة. فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسـوله هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً"[1].

ب)وأورد أقوال بعض علماء الزهد والسلوك في الالتزام بالكتاب والسنة، فنراه يقول: " قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمـه الله: (مـن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمـر، لأن علمنـا مقيـد بالكتاب والسنة). وقال: (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة).

وقال أبو حفص رحمه الله: (من لم يزن أفعاله وأحوالـه في كـل وقـت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال).

---

(١) الرسالة التبوكية، في الصفحات: ١٠٧ – ١٠٩، ١١١ – ١١٣، ١٣٣ – ١٣٥، بتحقيق: سليم الهلالي، ط الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، مكتبة الخراز بجدة، ودار ابن حزم ببيروت.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: (ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة)...

وقال أبو يزيد[1]: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة) "[2].

ولذا يقول ابن القيم: " وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، و لم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والإلهامات حتى يقوم عليها شاهدان: الكتاب والسنة"[3].

ج) وبيَّن أن رأس الأدب مع الرسول ﷺ : " كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يُحَمِّله السالك معارضة خيال باطل يسميه معقولاً، أو يُحمِّله شبهة أو شكاً، أو يُقدِّم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيُوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل"[4].

وفصَّل في كيفية الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام والإذعان له، حيث ذكر أن ذلك يكون بثلاثة أمور هي:

---

(١) طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، أحد الزهاد العبَّاد، له كلام حسن في المعاملات، توفي سنة ٢٦١هـ، وقيل غيرها. انظر: طبقات الصوفية، ص٦٧. وسير أعلام النبلاء، ج١٣/ص٨٦ – ٨٩.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٤٨. وانظر: ج٢/ص٧٦، وج٣/ص١٠٨ – ١٠٩، وإغاثة اللهفان، ص١٣٣.

(٣) إغاثة اللهفان، ص١٣٢.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٩١. وانظر: ص٢٩٣.

" الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالتعويل على المعقول هو منهج المتكلمين الذين يعارضون نصوص الشرع بمعقولاتهم الفاسدة، ويقولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل.

والأخذ بالقياس هو منهج المنحرفين المنتسبين إلى الفقه الذين يقولون: إذا تعارض القياس والنص قدمنا القياس على النص.

والاعتماد على الذوق هو منهج المنحرفين من الصوفية الذين إذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق و لم يعبئوا بالأمر.

والاعتداد بالسياسة هو منهج المنحرفين الجائرين من ولاة الأمر الذين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة و لم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الشرع، بحيث يظنه فاسد الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه. وهذا هو واقع الأمر، فإنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة في الذهن العليل، لا في نفس الدليل. وإذا رأى السالك من أدلة الدين ما يشكل عليه أمره وينبو عنه فهمه، فليعلم أن تحته كنزاً من كنوز العلم، وأنه لم يؤت مفتاحه بعد لكلال ذهنه.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة، لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحس بشيء من الخلاف فهو كخلاف المُقْدِم على كبيرة كالزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك،

وهو الذي خافه الأئمة على أنفسهم"[1].

د) وعزا إلى الإمام الشافعي رحمه الله إجماع السلف على وجوب الالتزام بنصوص الكتاب والسنة، حيث يقول: " حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد. ولا يستريب أحدٌ من أئمة الإسلام في صحة ما قال الشافعي رضي الله تعالى عنه. فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع، فضلاً عن أن تعارض بها النصوص وتُقدم عليها عياذاً بالله من الخذلان"[2].

ه) وأكد على أن اتباع ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق وصراط الله المستقيم المذكور في سورة الفاتحة، حيث يقول في معرض حديثه عن اشتمال سورة الفاتحة الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل: " الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق وإيثاره وتقديمه على غيره ومحبته والانقياد له والدعوة إليه وجهاد أعدائه بحسب الإمكان. والحق هو: ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده وأمره ونهيه ووعده ووعيده وفي حقائق الإيمان التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلّم إلى رسول الله ﷺ دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم. فكل علم أو عمل أو حقيقة أو حال أو مقام خرج

---

(١) المصدر السابق، ج٢/ص٢٥٤ – ٢٥٥ بتصرف يسير.

(٢) الرسالة التبوكية، ص١٠٧ – ١٠٨.

من مشكاة نبوته وعليه السكة المحمدية فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال"[١].

و) وبيَّن حكم من استغنى عن الكتاب والسنة، فقال: " ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس، فهو من أعظم الناس كفراً، وكذلك من ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يُلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يُعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان"[٢].

ز) وشدد في النكير على من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الآراء والأذواق والأهواء. ومما قاله بهذا الشأن قوله عن هذه الطائفة: " واعجباً لها كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع و لم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ونصوص حديث نبيه المرفوع، أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب ؟ . واعجباً كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأَقرَّت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم مِن كلام مَن كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان، وكلام من أُوتي جوامع الكلم، واستولى كلامه على الأقصى من البيان ؟...

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ص٥٥ – ٥٦.

(٢) إغاثة اللهفان، ص١٣٢.

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟، أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال ؟ ، أو بالإشارات والشطحات وأنواع الخيال ؟ ... ولن ينال الإنسان المطالب العالية ويخلص من الخسران المبين إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته"[١].

ح) وحذَّر السالك من التحاكم إلى الأذواق والمواجيد، فقال: " الذوق والحال والوجد منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة، حيث جعلوه حاكماً، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوه محكاً للحق والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص، وحكّموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد، فعظم الأمر وتفاقم الفساد والشر، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم، وانعكس السير، كان إلى الله فصيروه إلى النفوس، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم...

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فإن الأذواق مختلفة في أنفسها، كثيرة الألوان متباينة أعظم التباين، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد بحسب معتقداتهم وسلوكهم...

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ص١٦ – ١٨ بتصرف يسير.

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة المحدَّث المكاشَف عمر رضي الله عنه لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور الدين حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه، ولا إلى وجده وخطابه، بل يقول: (لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره)، ويقول: (أيها الناس: رجل أخطأ وامرأة أصابت)، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة.

وإذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهي: وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه، وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين، وإنما معه خدع وغرور ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

وإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء، هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي"[2].

---

(١) سورة النور، الآية ٣٩.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص٣٧٤ – ٣٧٥.

المبحث الرابع: متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به:

لابد للسالك كذلك من متابعة الرسول ﷺ والتأسي به في كل أعماله صغيرها وكبيرها، قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾(١)، وفي هذا يقول ابن القيم مخاطباً العبد السالك: حقيقة هذا الاقتداء "التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، وتحكيمه باطناً وظاهراً، والوقوف معه حيث وقف بك، والمسير معه حيث سار بك، بحيث تجعله بمنزلة شيخك الذي قد ألقيت إليه أمرك كله سره وظاهره، واقتديت به في جميع أحوالك، ووقفت مع ما يأمرك به فلا تخالفه ألبتة، فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخاً وإماماً وقدوة وحاكماً، وتعلق قلبك بقلبه الكريم وروحانيتك بروحانيته كما يُعلّق المريد روحانيته بروحانية شيخه، فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه. وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بإذنك.

وبالجملة: تجعل الرسول شيخك وأستاذك ومعلمك ومربيك ومؤدبك، وتُسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تُسقط الوسائل بينك وبين المرسِل في العبودية، ولا تُثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك"(٢).

ويتابع فيقول: "وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٢) مدارج السالكين، ج٣/ص١٠٩.

سواه، ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سـواه. ومـن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعاً للأصل.

وبالجملة: فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به ظاهره وباطنه. فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق، فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعمالـه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق، فإنه واصل ولو زحف زحفاً، فأَتْباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم: قامت بهم عزائمهم وهممهـم ومبايعتـهم لنبيهم، كما قيل :

مـن لي بمثـل سـيرك المـدلل تمشي رويـداً وتجـيء في الأول

والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتـهاداهم: قعـد بهـم عدوهم عن طريقه :

هم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلّوا"[2]

ويقول – معتبراً – الاقتداء بالرسول ﷺ أحد ثلاثة أمور لا يصح السلوك إلا بها: " إنما يصح السلوك ويسلم من الآفات والعوائق والقواطع بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون السالك على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لا على الجوادّ الوضعية والرسوم الاصطلاحية، وإن زخرفوا لها القول ودققوا لهـا

(١) سور النور، الآية ٣٩.

(٢) المصدر السابق، ج٣/ص١٠٩ – ١١٠. وراجع: طريق الهجرتين، ص٢٤.

الإشارة وحسنوا لها العبادة.

الثاني: أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود"[1].

ويستشهد بأقوال بعض علماء السلوك الأجلاء في هذا الضابط، فيقول: " قال الجنيد بن محمد رحمه الله: (الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه)"[2]، " وقال أحمد بن أبي الحواري[3] رحمه الله: (من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله)"[4]، "وقال ابن عطاء[5]: (من ألزم نفسه آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه)"[6].

ويبين – رحمه الله – الفرق بين تجريد المتابعة للرسول ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها، فيقول: " والفرق بين تجريد متابعة المعصوم ﷺ وإهدار أقوال العلماء وإلغائها: أن تجريد المتابعة أن لا تُقدِّم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائناً من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانياً، فإذا تبيَّن لك لم تعدل عنه ولو خالفك مَن بين المشرق والمغرب. ومعاذ الله

---

(١) مدارج السالكين، ج٣/ص١٣٠ – ١٣١.

(٢) المصدر السابق، ج٣/ص٩٣. وانظر: ج٢/ص٧٦، و ص٣٤٨، وطريق الهجرتين، ص٢٤.

(٣) أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري، الزاهد الورع، صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة، توفي سنة ٢٣٠هـ. انظر: صفة الصفوة، ج٤/ص٢٣٧ – ٢٣٨.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٤٨.

(٥) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء البغدادي، الزاهد العابد، من مشائخ الصوفية وعلمائهم، توفي سنة ٣٠٩هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٢٦٥، وشذرات الذهب، ج٢/ص٢٥٧.

(٦) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٤٩.

أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها، بل لابد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص ولا تضعف، واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك، هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يُوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فَهلاَّ وافقته إن كنتَ صادقاً، فَمنْ عَرَضَ أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يُهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتَّبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا مَنْ خالفهم. فمخالفتهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يُقلده به، ولذلك سُمي تقليداً. بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القِبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى. قال الشافعي: (أجمع الناس على أن مَنْ استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)"[١].

---

(١) الروح، ص٣٥٦ – ٣٥٧.

المبحث الخامس: تعلم العلم الشرعي[1]:

تعلم العلم الشرعي، والتفقه في أمور الدين الإسلامي، والبحث عن الدليل في مصادر التشريع الإسلامي المتفق عليها أمرٌ ضروري للسالك في نظر ابن القيم، فهو يقوده إلى الله عز وجل على كل حال.

يقول رحمه الله: " العلم إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، ولم ينه عن العلم إلا قُطّاع الطريق منهم ونُوّاب إبليس وشُرطه"[2].

ويقول أيضاً: " إن كل حال وذوق، ووجد وشهود لا يُشرق عليه نور العلم المؤيَّد بالدليل فهو من عبث النفس وحظوظها، فلو قُدِّر أن المتكلم إنما

---

(١) المراد بالعلم الشرعي هنا: علم الكتاب والسنة في العقيدة والعبادة والتشريع.

وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرى أن العلم الشرعي في الإسلام يشمل نوعين من العلوم، أحدهما: العلوم النقلية؛ أي المستندة إلى النقل وهو الوحي. والثاني: العلوم العقلية والتجريبية الصحيحة.

فكون العلم شرعياً يشمل:

١- ما أمر به الشرع وجاء به.

٢- وما أذن فيه وأباحه.

أما المقابل للعلم الشرعي – في نظره – فهو البدعي الخارج عن حدود الشرع، سواء أدخل نفسه ضمن العلوم النقلية كعلم الكلام الفلسفي؛ أم ضمن العلوم العقلية كعلم السحر. انظر: مجموع الفتاوى، ج٩/ص٢١ وما بعدها، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين – مكة المكرمة.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٤٧.

تكلم بلسان العلم المجرد، فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال من يخالف العلم والعلم يخالفه.

وليس من الانصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. وكم قد ضلَّ وأضلَّ مُحَكِّم الحال على العلم، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال إليه، فما زكَّاهُ شاهدُ العلم فهو المقبول، وما جرَّحه شاهد العلم فهو المردود. وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق رضي الله عنهم كُلّهم يُوصون بذلك، ويُخبرون أَنَّ كُلَّ ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل"[١].

" وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم[٢] من التزهيد في العلم والاستغناء عنه، كقول من قال: (نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت)، وقول الآخر – وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق[٣] ؟ - : (ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلّاق؟)، وقول الآخر: (العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل)، وقول الآخر: (إذا

---

(١) طريق الهجرتين، ص٥٨٥.

(٢) يعني: عن بعض أهل السلوك والتصوف.

(٣) مقصود ابن القيم بعبد الرزاق هنا: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، أحد كبار حفاظ الحديث الثقات، ولد سنة ١٢٦هـ، له كتاب (الجامع الكبير)، وكتاب (المصنف في الحديث)، وكتاب (تفسير القرآن). توفي سنة ٢١١هـ. انظر كلاً من: تقريب التهذيب – لابن حجر، ص٣٥٤. ووفيات الأعيان – لابن خلكان، ج٣/ص٢١٦ – ٢١٧. وسير أعلام النبلاء – للذهبي، ج٩/ص٥٦٣ وما بعدها.

رأيت الصوفي يشتغل بـ"أخبرنا" و"حدثنا" فاغسل يدك منه)، وقول الآخر: (لنا علم الحرف، ولكم علم الورق)، ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أقوال قائلها: أن يكون جاهلاً يُعذر بجهله، أو شاطحاً معترفاً بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا "أخبرنا" و"حدثنا" لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومن أحالك على غير "أخبرنا" و"حدثنا" فقد أحالك إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و"أخبرنا" و"حدثنا" إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طريق الجحيم والشيطان الرجيم.

والعلم: ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء به الرسول. والعلم خير من الحال، والعلم حاكم والحال محكوم عليه، والعلم هاد والحال تابع...، والحال سيف إن لم يصحبه العلم فهو مِخْراق في يد لاعب، والحال مَرْكَبٌ لا يجارى، فإن لم يصحبه علم ألقى صاحبه في المهالك والمتالف، والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالاً على صاحبه.

والحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن سطوته وازع، والحال بلا عمل كالنار التي لا سائس لها، نفع الحال لا يتعدى صاحبه، ونفع العلم كالغيث يقع على الظِراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر...

والعلم تركه الأنبياء وتراثهم، وأهل عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين

ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه اهتدى السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام وتعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة والمُحدِّث في الخلوة والأنيس في الوحشة والكاشف عن الشبهة...، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربه، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: (الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه)[1]. وروينا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: (طلب العلم أفضل من صلاة النافلة)، ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب[2]: (كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أُصلي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضل مما قمتَ عنه) ذكره ابن عبد البر وغيره...

(١) راجع: مفتاح دار السعادة، ص٦٣، وص٨٤.

(٢) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، أبو محمد، العالم الفقيه، صحب الإمام مالك ودرس عليه، توفي سنة ١٩٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب، ج٦/ص٧١.

والعلم حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتُظلهم بها، وأن العالِم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يُصَلّون على معلمي الناس الخير[1]"[2].

ويستشهد بأقوال بعض علماء السلف في ضرورة العلم الشرعي، فيقول: " قال معاذ بن جبل: (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخِلاّء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة تُقْتَصُّ آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خُلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهَوَامُّه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يُلْهَمه السعداء، ويُحرمه الأشقياء) رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما "[3]، " وقد ذكر الإمام

---

(١) يشير ابن القيم هنا إلى مضامين بعض الأحاديث النبوية الواردة في بيان فضل العلم وأهله.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٥٠ – ٣٥٢. وراجع: ج٢/ص٢٦٣ – ٢٦٤.

(٣) المصدر السابق، ج٣/ص١٩٦.

أحمد في كتاب (الزهد) من كلام لقمان أنه قال لابنه: (يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر) "[١].

ويقول: " كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (من فارق الدليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول). وقال الحسن: (العالم على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسده أكثر مما يصلحه)"[٢].

ويقول أيضاً: " قال أبو عمرو بن نجيد[٣]: (كل حال لا يكون عن نتيجة علم، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه) "[٤].

ويعقد ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) فصلاً مطولاً في فضل العلم وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه[٥]، ومما قاله فيه قوله: " إن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة، والنور والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويُبيّن مراتبها"[٦]، " وحاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص٨٥.

(٣) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد السلمي النيسابوري، الإمام القدوة والمحدث الرباني، كبير الطائفة الصوفية، سمع من عبد الله بن أحمد بن حنبل ومحمد البحلي، وحدث عنه سبطه أبو عبد الرحمن السلمي وأبو عبد الله الحاكم وغيرهما، توفي سنة ٣٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٦/ص١٤٦ – ١٤٨.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص٣٥٠.

(٥) راجع: مفتاح دار السعادة في الصفحات: ٥٠ – ١٦٨.

(٦) المصدر السابق، ص٥٦. وراجع: مدارج السالكين، ج٣/ص١٢٣.

المطر، بل أعظم، وإذا فقدوا العلم فهم بمنـــزلة الأرض التي فقدت الغيـــث"[1]، " وفَقْدُ العلم فيه فَقْدٌ لحياة القلب والروح، فلا غنى للعبد عنه طرفة عـــين"[2]، "والعلم من الإيمان بمنـــزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا علـــى ساق العلم والمعرفة"[3]، " وما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم، ولا بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب إلا بالعلم، ولا عُبِدَ الله وحده وحُمِدَ وأُثـــني عليه ومُجِّد إلا بالعلم، ولا عُرِفَ الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا عُرِفَ فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم"[4].

وقوله أيضاً: " العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرّة عليه، كما قال بعض السلف: (من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر ممـــا يصـــلح). والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتـــها لـــه، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود. فالعلم هو الميزان وهو المَحكّ، قال تعـــالى ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ** ﴿٢﴾ ﴾[5] ، قال الفضيل بن عياض: (هو أخلص العلـــم وأصـــوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ ، قال: إن العمل إذا كان خالصاً و لم يك صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصـــاً

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص٦٣. وراجع: ص٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص٨٨.

(٣) المصدر السابق، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص٩٠.

(٥) سورة الملك، الآية ٢.

صواباً، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة). وقد قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[١] ، فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم بما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده. فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] ، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره. وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كانت هذه منزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرفُ شيء وأجلّه وأفضله"[٣].

وقوله كذلك: " ولا ريب أن العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلّ العلوم وأفضلها وأشرفها، فهو أصلها كلها،... وهو أيضاً أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو وتُفلح به، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته"[٤].

---

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص٨٥.

(٤) المصدر السابق، ص٨٩.

ومن فوائد العلم الشرعي للسالك في نظر ابن القيم – بالإضافة إلى ما تقدم – :

١-أنه يهذبه ويهيئه لسلوك طريق العبودية لله عز وجل[١].

٢-ويهديه إلى الغاية المقصودة له من سيره، فكم من سالك لا يعرف الغاية من سيره[٢].

٣-ويصحح همته، فأعلى الهمم همة اتصلت بالحق سبحانه، وهي همة الرسل وأتباعهم[٣].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ج٣/ص١٠٨ – ١٠٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ج٣/ص١١٠ – ١١١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ج٣/ص١١١.

المبحث السادس: الالتزام بأداء التكاليف الشرعية:

يجب على العبد السالك أداء ما افترضه الله عليه من عبـادات شـرعية، كالصلاة والصيام والزكاة والحج...، ويرى ابن القيم أنه لا يجوز للسالك ترك فرائض أو جهاد أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر مهما بلغ من درجة القـرب من الله، بل يرى أنه ينبغي عليه أن يكون أكثر عبادة والتزاماً بأوامر الله ونواهيه كلما تَرقَّى في درجات القرب من الله. حيث يقول رحمه الله: " كلمـا تمكـن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثـر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ – بل على جميع الرسل – أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته "[1].

ويقول أيضاً: "إن العبد كلما كان إلى الله أقرب كـان جهـاده في الله أعظم، قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[2]. وتأَمَّلْ أحوال رسـول الله ﷺ وأصحابه فإنهم كانوا كلما ترقَّوا من القرب في مقـام؛ عظـم جهـادهم واجتهادهم. لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق، حيـث قـال: (القرب الحقيقي ينقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، ويـريح الجسد والجوارح من كد العمل).

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ص٨٧ – ٨٨.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً، حيث عطَّلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان...

وقد صَرَّح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء، فأخرجوهم من الإسلام، وقالوا: لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة، أي: ما دام قادراً عليه...

قال سري السقطي[1]: (من ادعى باطن حقيقة ينقضها ظاهر حكم فهو غالط). وقال سيد الطائفة الجنيد بن محمد: (علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ). وقال إبراهيم بن محمد النصراباذي[2]: (أصل هذا المذهب ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع، والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف، وترك ما أحدثه الآخرون، والمقام على ما سلك الأولون). وسُئل إسماعيل بن نجيد: ما الذي لابد للعبد منه ؟ ، فقال: (ملازمة العبودية على السنة ودوام المراقبة)... وقال الجنيد – لما ذُكر عنده استهانة بعض أهل المعرفة بالعبادات – : (العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك)... فلا تصغ إلى قول ملحد قاطع للطريق في قالب عارف يقول: إن منزلة القرب تنقل العبد من الأعمال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، وتَحْمِلُ على الاستهانة بالطاعات

---

(١) سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة، وهو خال الجنيد بن محمد وأستاذه، توفي سنة ٢٥٣هـ، وقيل ٢٥١هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٤٨. وصفة الصفوة، ج٢/ص٣٧١ – ٣٨٥.

(٢) إبراهيم بن محمد النصراباذي، أبو القاسم، شيخ خراسان في زمنه، له اهتمام بالسير والتاريخ، توفي سنة ٣٦٧هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص٤٨٤. وشذرات الذهب، ج٣/ص٥٨.

الظاهرة، وتُريحه من كَدِّ القيام بها"[1].

ويُعنِّف – رحمه الله – على من ادعى سقوط التكاليف الشرعية عن السالك إذا ازداد قرباً من الله، فيقول: " من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه"[2]، والتكاليف الشرعية " إنما هي قرة عين، وسرور قلب، وحياة روح، صَدَرَ التكليفُ بها عن حكيم حميد. فهي أشرف ما وصل إلى العبد من ربه، وثوابه عليها أشرف ما أعطاه الله للعبد"[3].

---

(١) مدارج السالكين، ج٣/ص٩١ – ٩٤، بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص٨٧.

(٣) المصدر السابق، ج٣/ص١١٧.

المبحث السابع: اجتناب الذنوب والمعاصي:

ولابد للسالك كذلك من اجتناب مقارفة الذنوب والمعاصي ليصح له سيره، وذلك لأن حياة القلب إنما هي في هذا الاجتناب، ولما للذنوب والمعاصي من أضرار كثيرة جداً في القلب كأضرار السموم في البدن.

يقول ابن القيم: " حياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك[1] رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يُورث الذلُ إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها"[2]

ويقول: " مما ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولابد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟ .

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة — دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور — إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟ .

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدَّل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً، وبموالاة الولي الحميم أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة، العالم الجواد المجاهد الذي جمعت فيه خصال البر والخير، توفي سنة ١٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٨/ص٣٣٦. وتقريب التهذيب، ص٣٢٠.

(٢) مدارج السالكين، ج٣/ص١٩٧.

زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة...

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما دمرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟ .

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ .

ومن الذي رفع قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ؟...

وما الذي أرسل على وقومه شعيب سحاب العذاب كالظل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تَلظّى ؟ .

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق ؟ .

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ .

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً ؟ .

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم ؟ .

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما علوا تتبيراً؟ "[1].

ويبين – رحمه الله – قبح أثر الذنوب والمعاصي والضرر الناشئ منها، فيقول: " وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها :

١- حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

٢- حرمان الرزق، وفي المسند (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[2].

٣- وحشة يجدها العاصي في قلبه وبينه وبين الله لا توازها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

٤- وحشة تحصل بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم. وكلما قويت تلك الوحشة بَعُد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقَرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بَعُد من حزب الرحمن.

---

(١) الجواب الكافي، ص٤٢ – ٤٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند من حديث ثوبان رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٢٣٨٦)، ج٣٧/ص٦٨، وضعف محققوا المسند إسناده. ورواه ابن ماجه في سننه، الحديث رقم (٩٠) ورقم (٤٠٢٢)، وقد ضعفه الألباني في تحقيقه لهذه السنن. كما رواه الحاكم في المستدرك في كتاب (الدعاء والتكبير)، الحديث رقم (١٨١٤)، ج١/ص٦٧٠، وقال: "حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

٥- ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البـــهيم إذا إدْلَهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعـــة نـــور والمعصية ظلمة.

٦- أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز علـــى العبـــد مفارقتها والخروج منها.

٧- أن المعاصي سبب لهوان العبد على ربه. قال الحسن البصري: (هـــانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم)، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾(١).

٨- أن المعاصي تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعـــالى، قال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾(٢) .

٩- أنها تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل ولابـــد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

١٠-أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتُضعف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تَجرَّأَ على معاصيه.

---

(١) سورة الحج، الآية ١٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

١١-أنها تُذهب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كـل خـير. وذهابه ذهاب الخير أجمعه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "الحياء خير كله"[١][٢].

ويُذكر ابن القيم أضراراً وآثاراً سيئة أخرى كثيرة للذنوب والمعاصي[٣]، ثم يقول: " وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يُحيط بها العبدُ علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يُحيط بها علماً، فخير الدنيا والآخـرة بحـذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته"[٤].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الإيمان)، باب (بيان عدد شعب الإيمان)، ج٢/ص٧.

(٢) انظر: الجواب الكافي، في الصفحات: ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٨، ٦٩.

(٣) راجع في هذه الآثار كلاً من: الجواب الكافي، ص٥١ – ١٢٠. وطريق الهجرتين، ص٤٨٧ – ٤٩٣.

(٤) طريق الهجرتين، ص٤٩٣.

الفصل الثالث

مصادر قيم السلوك مع اللّه عند ابن القيم

الفصل الثالث

مصادر قيم السلوك مع الله عند ابن القيم

يجد المتأملُ في ما كتبه ابن القيم في قيم السلوك ومنازل السـير إلى الله أن مصادره في كل ما قرره فيها يتمثل في المصادر الأساسية التالية :

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: السنة النبوية.

الثالث: الصحابة رضوان الله عليهم.

الرابع: الزهاد والمتصوفة الأوائل.

الخامس: الشيخ أبو إسماعيل الهروي.

السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية.

وسأتناول – إن شاء الله – كل واحد من هذه المصادر الستة في مبحث مستقل، وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول: القرآن الكريم:

القرآن الكريم في اصطلاح العلماء هو: كلام الله تعالى الـمُنـزل على نبيه محمد ﷺ، المعجز بنفسه، الـمُتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً[1].

ويتبوأ القرآن الكريم المكانة الأولى والمقام الأسمى عند ابن القيم – شأنه في ذلك شأن سائر علماء السلف رحمهم الله –، لأنه كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ورسالته الخالدة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل بما فيه هُدي إلى صراط مستقيم، أنزله عز وجل على نبيه محمد ﷺ تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين، وجعله شفاءً للناس، وشفيعاً يوم القيامة لأصحابه. يقول تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]، ويقول ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[3]، ويقول أيضاً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ

(١) انظر في هذا كلاً من: روضة الناظر – لابن قدامة، ج١/ص١٧٨ – ١٨٠، ط الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، مكتبة المعارف – الرياض. والمختصر في أصول الفقه – لابن اللحام، ص٧٠، تحقيق: د. محمد مظهر بقا، ط عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة. وشرح الكوكب المنير – للفتوحي، ج٢/ص٧ – ٨، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، ط عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة. وإرشاد الفحول – للشوكاني، ص٢٩ – ٣٠، ط الأولى ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٩.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ، ويقول النبي ﷺ : " اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه"[2]، ويقول أيضاً: " فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه"[3].

والقرآن الكريم هو أصل الأصول عند ابن القيم، والمصدر الأول والأساس للأحكام الشرعية عنده سواء في مجال العقيدة أم العبادة أم الأخلاق والسلوك أم غيرها من المجالات التي جاء الإسلام بتشريعها وتنظيمها. ولذا كان – رحمه الله- شديد الإقبال عليه والتمسك به، لا يُقدم عليه رأياً ولا اجتهاداً، وعليه بنى معرفته وتمثله لهذا الدين، فلزم نصوصه، وعلم أحكامه، وعمل بظواهره، موقناً بأنه حجة على كل مسلم ومسلمة.

يقول في مطلع كتابه (مدارج السالكين): " الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين وإله المرسلين وقيوم السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشك واليقين، أنزله لنقرأه تدبراً ونتأمله تبصراً ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (فضل قراءة القرآن في الصلاة وسورة القرآن)، ج٦/ص٨٩ – ٩٠.

(٣) رواه الدارمي في سننه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، الحديث رقم (٣٣٥٩)، ج٢/ص٣١٧، ط عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار حديث أكادمي، باكستان – فيصل أباد. كما رواه الترمذي في سننه، الحديث رقم (٣٠٩٤)، ج٤/ص٢٥٥ – ٢٥٦، وقال: "هذا حديث حسن غريب".

ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يُغلق إذا غُلِّقت الأبواب، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنُزُلُ الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقلِع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته. كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً زادها هداية وتبصيراً، وكلما بَجَّست مَعينهُ فَجَّر لها ينابيع الحِكمة تفجيراً، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح"(1).

والمطَّلعُ على كتب ابن القيم التي بَيَّن فيها قيم السلوك ومنازل السير إلى الله تعالى، أمثال: (مدارج السالكين) و(طريق الهجرتين) و(روضة المحبين) و(الرسالة التبوكية)، يجدها ممتلئة بالآيات القرآنية الكريمة، فلا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات كل كتاب من كتبه هذه. فقد استمد من هذه الآيات القرآنية الكثيرة ما انتهى إليه من تفصيلات مسائل قيم السلوك وأحكامها وحقائقها وأقسامها...

---

(1) مدارج السالكين، ج1/ص15.

ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – ما يلي :

١- أنه في حديثه عن مقام (التوبة) استدل بقوله تعالى ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١] على لزوم التوبة للعبد السالك، كما استمد من هذه الآية – في معرض حديثه عن حقيقة التوبة ومكانتها – حكمه بتعليق الفلاح على التوبة. واستمد من قوله تعالى ﴿ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾[٢] تحديد صفات التائبين. ولما ذكر أن مبدأ التوبة الرجوع إلى الله سبحانه بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده وأمرهم بسلوكه، استدل بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[٣].

٢- ويستنبط قيمة الإنابة وفضلها من :

أ) تكرار ذكرها والأمر بها في القرآن الكريم، كقوله تعالى ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾[٤]، وقوله سبحانه حكاية عن نبيه شعيب عليه السلام أنه قال ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٥]، وقوله ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ

---

(١) سورة النور، الآية ٣١.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٤) سورة الزمر، الآية ٥٤.

(٥) سورة هود، الآية ٨٨.

﴿ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[1]، وقولــــه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾[2]، وقوله عن نبيه داود عليه السلام ﴿ وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴾[3].

ب) إخباره سبحانه بأن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، وذلك في قولــه ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ﴾[4].

ج) وإخباره سبحانه بأن البشرى منه إنما هـــي لأهـــل الإنابـــة في قولــه ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾[5].

٣- ويدلل على القسم الأول من قسمي الإنابة، وهو: الإنابـــة لربوبيتـــه سبحانه – التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر – بقوله تعـــالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾[6].

٤- ويستمد تقريره لمقام (الخوف)، ووجوبه، والثناء على أهله من قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[7]، وقوله سبحانه ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[8]، وقوله ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾[1]، وقوله في مدح أهـــل الخـــوف

---

(١) سورة ق، الآية ٨.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٧.

(٣) سورة ص، الآية ٢٤.

(٤) سورة ق، الآيات ٣١ – ٣٤.

(٥) سورة الزمر، الآية ١٧.

(٦) سورة الروم، الآية ٣٣.

(٧) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

(٨) سورة البقرة، الآية ٤٠.

والثناء عليهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2] ، وقوله في الثناء على أنبيائه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[3] ، وقوله عن ملائكته الذين أمَّنهم من عذابه ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[4] .

٥- ويستمد من قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5] حكمه بأن الخوف شرط في تحقق الإيمان. كما يستمد من هذه الآية الكريمة ومن قوله سبحانه ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[6] ، ومن قوله كذلك ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[7] ، يستمد منها حكمه بأن الخوف لا يصلح إلا لله وحده.

٦- ويستشهد في الحث على الزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة بالعديد من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[8]، وقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات ٥٧ — ٦١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

(٤) سورة النحل، الآية ٥٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

(٦) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٧) سورة التوبة، الآية ١٨.

(٨) سورة النساء، الآية ٧٧.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[1]، وقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[2].

٧- ويستدل بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ في بيانه حقيقة الرجاء والفرق بينه والتمني، حيث يقرر أن الرجاء إنما يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الفوز والظفر، بينما التمني ينحصر في حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، بقرينة أن الله سبحانه طوى في هذه الآية الكريمة بساط الرجاء إلا عن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيله.

٨- ويستنبط قيمة (الرجاء) وفضله من مدحه سبحانه لأهله وثنائه عليهم في قوله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[3].

٩- ويستنبط مفهوم المراقبة وحقيقتها من قوله تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[4]، وقوله سبحانه ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[5]،

---

(١) سورة طه، الآيات ١٣١.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٧ — ٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

(٥) سورة الحديد، الآية ٤.

وقولـــه ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[1] ، وقولـــه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[2] .

١٠- ويورد في بيان قيمة الإخلاص وضرورته العديد من الآيات القرآنيـــة، منها: قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[3] ، وقوله سبحانه ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[4]، وقوله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[5].

١١- ويستدل على وجوب الاستقامة بقوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[6]، وبقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[7]. كما يستدل على ثمراها وعواقبها الحسنة بقوله سـبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى

---

(١) سورة العلق، الآية ١٤.

(٢) سورة غافر، الآية ١٩.

(٣) سورة البينة، الآية ٥.

(٤) سورة الزمر، الآيتان ٢ – ٣.

(٥) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢ – ١٦٣.

(٦) سورة هود، الآية ١١٢.

(٧) سورة فصلت، الآية ٦.

كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، وبقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

١٢- ويستمد من قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] على أن أن التوكل شرط من شروط تحقق الإيمان ولازم من لوازمه. و يدلل على أهمية التوكل بأن الله سبحانه جمع بينه والإسلام في قوله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[4]، وجمع بينه والتقوى في قوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[5]، وجمع بينه والهداية في قوله لنبيه ﷺ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[6].

١٣- ويستدل على وجوب التوكل بالكثير من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[7]، وقوله سبحانه لرسوله ﷺ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[8]، وقوله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان ١٣ – ١٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٤) سورة يونس، الآية ٨٤.

(٥) سورة الطلاق، الآيتان ٢ – ٣.

(٦) سورة النمل، الآية ٧٩.

(٧) سورة إبراهيم، الآية ١١.

(٨) سورة النساء، الآية ٨١.

يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾[1]، وقولــــــه ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2].

١٤- ويبين في معرض حديثه عن فضائل الصبر في القرآن الكريم أن الله سبحانه ذكر الصبر في القرآن الكريم في تسعين موضعاً على ستة عشر وجه، منها: الأمر به في نحو قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[3]، ومنها: إيجابه سبحانه محبته للصابرين، كقوله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[4]، ومنها: إيجـــاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5] [6].

١٥- ويستدل على أن العبد لا ينفعه يوم القيامة في الفــوز بــدار الجنــان والنجاة من النيران إلا صدقه، يستدل على ذلك بقوله تعــالى ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[7] .

١٦- ويبين في معرض حديثه عن فضائل الذكر وفوائده أن الــذكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، منها: الأمر به في نحو قوله تعــالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٥٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٥٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٥) سورة النحل، الآية ٩٦.

(٦) راجع: الصفحات ١٠٤ – ١٠٨ من هذا الكتاب.

(٧) سورة المائدة، الآية ١١٩.

ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[1]، ومنها: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، كقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[2]، ومنها: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته، كقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] [4].

١٧- وفي معرض حديثه عن ضابط (العبودية الخالصة لله تعالى) يستدل بقوله سبحانه ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[5] على لزوم إخلاص العبودية لله ما دام العبد في دار التكليف ليصح له سيره إلى الله تعالى. ويستنبط قيمة إخلاص العبودية لله وقدره من إجماع الرسل عليهم السلام على الدعوة إليه، فقد قال نوح لقومه ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[6]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[7].

١٨- وفي معرض حديثه عن ضابط (الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما) أورد بعض الآيات القرآنية الدالة على وجوب هذا الضابط، كقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[8]،

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٤١ – ٤٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

(٣) سورة الجمعة، الآية ١٠.

(٤) راجع: الصفحات ١٢٧ – ١٢٩ من هذا الكتاب.

(٥) سورة الحجر، الآية ٩٩.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٧) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٨) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

١٩- وفي معرض حديثه عن قبح أثر الذنوب والمعاصي والضرر الناشئ منها أورد قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[2] للدلالة على أن العزة إنما إنما هي في طاعة الله، وأن المعاصي تورث الذل ولابد.

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

المبحث الثاني: السنة النبوية:

السنة في اصطلاح العلماء هي: ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير في غير الأمور الطبعية[1].

والسنة المطهرة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وأصل أساس من أصول الاستدلال والاستنباط، وتتبوأ المرتبة الثانية عند ابن القيم - وسائر علماء السلف - بعد كتاب الله عز وجل من حيث الاستمداد منها والاحتجاج بها. وقد أُشتهر عنه - رحمه الله - إجلاله لها وشدة تمسكه واهتمامه بها، وقد حافظ عليها محافظته على القرآن الكريم، ورأى استقلالها بتشريع الأحكام ووجوب العمل بها، وإن كانت من حيث الاعتبار وقوة الاستدلال متأخرة عن الكتاب.

فقد عقد في كتابه (أعلام الموقعين) فصلاً بعنوان (الرسول أول من بلّغ عن الله)، قال فيه: " أول من قام بهذا المنصب الشريف - التبليغ عن الله سبحانه - سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، فكان يُفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له

---

(١) انظر في هذا كلاً من: الفقيه والمتفقه - للخطيب البغدادي، ج١/ص٨٦، تعليق: إسماعيل الأنصاري، ط عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، دار إحياء السنة النبوية بمصر. وشرح مختصر الروضة - لنجم الدين الطوفي، ج٢/ص٦٠ - ٦١، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، مؤسسة الرسالة - بيروت. والمختصر في أصول الفقه - لابن اللحام، ص٧٤. وإرشاد الفحول - للشوكاني، ص٣٣، ط الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

أحكم الحاكمين ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[١] ، فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً "[٢].

ويقول في موضع آخر: " قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[٣] ، فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أَمَرَ وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أُوتي الكتاب ومثله معه،... وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته"[٤].

ويقول أيضاً: " السنة مع الكتاب على ثلاثة أوجه :

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها.

الثاني: أن تكون بياناً لما أُريد بالقرآن وتفسيراً له.

---

(١) سورة ص، الآية ٨٦.

(٢) أعلام الموقعين، ج١/ص١١.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٤) المصدر السابق، ج١/ص٤٨ – ٥٠ بتصرف يسير.

الثالث: أن تكون مُوجِبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو مُحرِمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام.

فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته. وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله.

ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[١] ،... فسنن رسول الله ﷺ أجل في صدورنا وأعظم وأفرض علينا أن لا نقبلها إذا كانت زائدة على ما في القرآن، بل على الرأس والعينين،... ولو ساغ لنا رد كل سنة زائدة على نص القرآن، لبطلت سنن رسول الله ﷺ إلا سنة دل عليها القرآن"[٢].

ولذا كان الاستمداد من السنة المطهرة والاستنباط منها – ومن الكتاب قبل ذلك – سمة بارزة من سمات منهج ابن القيم في سائر كتبه، كما أنه – رحمه الله – لم يذكر منزلة من منازل السائرين إلى الله إلا وبيَّن أدلتها وشواهدها وتفصيلاتها من السنة ما أمكنه ذلك .

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٢) أعلام الموقعين، ج٢/ص٣٠٧ – ٣٠٩. وراجع: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص٧٢ – ٧٤، ط عام ١٣٩١هـ – ١٩٧١م، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – ما يلي :

١- أنه في حديثه عن مقام (التوبة) استدل بسنة النبي ﷺ لبيان ضرورة التوبة ولزومها للعبد السالك، حيث يقول: " وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[١]، وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة)[٢]، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ﴾[٣] إلى آخرها إلا قال فيها (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)[٤]،... فصلوات الله وسلامه عليه أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعز المزني عن ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب (التوبة)، ج١٧/ص٢٤، ولفظه في آخره (مائة مرة). ورواه بدون الأمر بالتوبة ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٧)، ا لحديث رقم (٣٨١٦)، ص٦٢٩، وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، الحديث رقم (٤٧٢٦)، ج٨/ص٣٥٠. وقال محققوا المسند: "إسناده صحيح على شرط الشيخين". كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الأدب)، الباب (٥٧)، الحديث رقم (٣٨١٤)، ص٦٢٩. وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن، كما صحح إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة، الحديث رقم (٥٥٦)، ج٢/ص٩٦.

(٣) سورة النصر، الآية ١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (التفسير)، الباب (١١٠)، الحديث رقم (٤٩٦٧)، ج٨/ص٧٣٣. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الصلاة)، باب (ما يقال في الركوع والسجود)، ج٤/ص٢٠٢.

وحقوقها وأقومهم بها"[١].

٢- ويستدل بقول النبي ﷺ : (لن ينجو أحدٌ منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[٢]، في معرض حديثه عن ضرورة إياس العبد السالك من النجاة من النار يوم القيامة بعمله، واعتقاده أن النجاة إنما هي برحمة الله وفضله، باعتبار ذلك أحد أمور ثلاثة لا يستقيم للعبد الرجوع إلى الله سبحانه والإنابة إليه إلا بها[٣].

٣- ويستدل بقول النبي ﷺ : (ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها)[٤] لإثبات أن إيقان العبد السالك بأن الدنيا ظل زائل وخيال زائر مما يصحح له زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة. ويقرر أن مما يصح للعبد هذا الزهد أيضاً إيقانه بأن وراء هذه الدنيا داراً أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً؛ وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ : (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم لينظر بم يرجع)[٥].

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ص١٤٢.

(٢) رواه البخاري – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه – في صحيحه في كتاب (المرضى)، الباب (١٩)، الحديث رقم (٥٦٧٣)، ج١٠/ص١٢٧. كما رواه مسلم في صحيحه في كتاب (صفة القيامة والجنة والنار)، باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله)، ج١٧/ص١٦٠.

(٣) راجع: مدارج السالكين، ج١/ص٣٣٣.

(٤) تقدم تخريجه في ص٧٠.

(٥) تقدم تخريجه في ص٧٠.

٤- ويستمد من قوله ﷺ (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنـــزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[١] - يستمد منه - حكمه بأن الرجـــاء لابد أن يقارنه ثلاثة أمور هي: محبة ما يرجوه، وخوفه من فواتـــه، وســـعيه في تحصيله قدر الإمكان. وأما الرجاء الذي لا يقارنه شيء مـــن ذلـــك، فهـــو في الحقيقة من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف. والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات[٢].

٥- ويستنبط مفهوم (المراقبة) وحقيقتها من قوله ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٣].

٦- ويستشهد بالعديد من الأحاديث النبوية للدلالـــة علـــى ضـــرورة (الإخلاص)، منها: الحديث القدسي (من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء)[٤]، وقوله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى أجســـامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٥].

٧- ويستدل على وجوب الاستقامة بثلاثة أحاديث نبوية، حيث يقول ما نصه: "... وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه أنه قـــال: قلت (يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قـــل

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سننه في كتاب (صفة القيامـــة)، البـــاب (١٨)، الحديث رقم (٢٤٥٥)، ج٤/ص٦٣٣.

(٢) انظر: الجواب الكافي، ص٣٩.

(٣) تقدم تخريجه في ص٧٩.

(٤) تقدم تخريجه في ص٨٤.

(٥) تقدم تخريجه في ص٨٥.

آمنت بالله ثم استقم)[1]، وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[2]. والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ ، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[3]، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي: السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال. وأخبر في حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله ولا يُعجب به ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله"[4].

٨- ويستنبط – في حديثه عن الفرق بين التوكل والعجز – من سنة النبي ﷺ الفعلية حكمه – رحمه الله – بضرورة اعتماد القلب على الله وحده مع فعل

---

(١) تقدم تخريجه في ص٨٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٢٢٣٧٨)، ج٣٧/ص٦٠، وقد صححه محققوا المسند. كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الطهارة وسننها)، الباب (٤)، الحديث رقم (٢٧٧)، ص٦٦. وقد صححه الألباني في تحقيقه لهذه السنن.

(٣) تقدم تخريجه في ص٢٠٤.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ص٨٠.

الأسباب الجالبة للمنافع والدافعة للمضار، فنجده يقول: " والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته، اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين، وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظَاهَرَ يوم أحُدٍ بين درعين، واختفى في الغار ثلاثاً، فكان متوكلاً في السبب لا على السبب. وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل؛ ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر و لم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب، فهذا توكله عجز وعجزه توكل"[1].

٩- ويستنبط من السنة النبوية بعض آداب الصبر على المصيبة، حيث يستنبط من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: وما تبال بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[2] [3]، يستنبط من هذا الحديث أدب (الصبر والاحتساب عند أول

---

(١) الروح، ص٣٤٣ – ٣٤٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الجنائز)، الباب (٣١)، الحديث رقم (١٢٨٣)، ج٣/ص١٤٨. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الجنائز)، باب (الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى)، ج٦/ص٢٢٧.

(٣) انظر: عدة الصابرين، ص٨٦.

حلول المصيبة أو البلاء بالعبد)، ويقول: " فإذا كان آخر الأمر الصبر؛ والعبد غير محمود، فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره. وقد قال بعض العقلاء: (من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم)"[1].

كما يستنبط من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها. قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ؟ ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ)[2]، يستنبط منه أدب (الاسترجاع، وهو قول المبتلى: إنا لله وإنا إليه راجعون)، ويقول معلقاً على الحديث: " فانظر عاقبة عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضا عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله"[3].

١٠- وفي معرض حديثه عن حقائق (الصدق) يستنبط من قوله ﷺ : (الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)[4] أحد علامات الصدق، وهي: حصول الطمأنينة للقلب والسكون للنفس[5].

---

(١) المصدر السابق، ص٦٠.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجنائز)، باب (ما يقال عند المصيبة)، ج٦/ص٢٢٠.

(٣) عدة الصابرين، ص٨٨.

(٤) تقدم تخريجه في ص١٢١.

(٥) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ص٢٠٧ – ٢٠٨.

١١- ويستدل على فضل الذكر والذاكرين بالعديد من الأحاديث النبوية، منها: قوله ﷺ لأصحابه بأن جبريل عليه السلام أخبره بأن الله سبحانه يباهي بأهل الذكر ملائكته[(١)].

١٢- ويستدل على وجوب الالتزام بالسنة والأخذ بها والتحاكم إليها بقول النبي ﷺ (يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شيء اتّبعناه، إلا أني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه)[(٢)].

١٣- ويستنبط من قوله ﷺ (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[(٣)] حكمه بأن من الآثار السيئة للذنوب والمعاصي والأضرار الناشئة منها: حرمان المذنب والعاصي الرزق.

---

(١) راجع: المصدر السابق، ج٢/ص٣٢٠ - ٣٢٣.

(٢) تقدم تخريجه في ص١٥٥.

(٣) تقدم تخريجه في ص١٨١.

المبحث الثالث: الصحابة رضوان الله عليهم:

الصحابي في اصطلاح جمهور العلماء: " من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ولو ساعة سواء روى عنه أم لا"[1].

وللصحابة – رضي الله عنهم – عند ابن القيم مقام سام جداً ومنزلة عالية رفيعة، فهم كما يقول – رحمه الله -: " ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة"[2]. وكما يقول أيضاً في بيان ما امتازوا به عن المتأخرين عنهم: " وكانوا أقرب إلى أن يوفقوا في مدارك دلالات الألفاظ والأقيسة لما لم نوفق له نحن، لما خَصَّهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل قد غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله تعالى كذا وقال رسوله كذا، والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرة مجتمعة عليهما...، هذا إلى ما خُصوا به من كثرة المعاون وقلة الصارف، وقرب العهد

---

(١) إرشاد الفحول – للشوكاني، ص٧٠. وانظر: المختصر في أصول الفقه – لابن اللحام، ص٨٨.

(٢) أعلام الموقعين، ج١/ص١١.

بنور النبوة، والتلقي من تلك المشكاة النبوية"(١).

ويتساءل – رحمه الله – " هل كان في الصحابة من إذا سمع نص رسول الله ﷺ عارضه بقياسه أو ذوقه أو وَجْده أو عقله أو سياسته ؟ ، وهل كان قط أحد منهم يُقدم على نص رسول الله ﷺ عقلاً أو قياساً أو ذوقاً أو سياسة أو تقليد مقلد ؟ ، فلقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه مَنْ هذا حاله أو يكون في زمانهم. ولقد حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على من قَدَّم حكمه على نص الرسول بالسيف، وقال: (هذا حكمي فيه) "(٢).

ولذا فهم أفقه الأمة وأعلمهم بمراد الله ومراد رسوله ﷺ ، وقد جاء القرآن الكريم في التشريع بموافقة بعضهم في رأيه. يقول ابن القيم: " والمقصود أن أحداً ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته ؟ ، كما رأى عمر في أسارى بدر أن تُضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته، ورأى أن تُحجب نساء النبي ﷺ فنزل القرآن بموافقته، ورأى أن يُتخذ من مقام إبراهيم مُصَلى فنزل القرآن بموافقته، وقال لنساء النبي ﷺ لما اجتمعن في الغيرة عليه ﴿ **عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ** ﴾(٣) فنزل القرآن بموافقته، ولما تُوفّي عبد الله بن أبي قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عليه ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم**

---

(١) المصدر السابق، ج٤/ص١٤٨ – ١٥٠ بتصرف يسير.

(٢) مداج السالكين، ج١/ص٢٤٩.

(٣) سورة التحريم، الآية ٥.

﴿مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[1] . وقد قال سعد بن معاذ لمّا حكّمه النبي ﷺ في بني قريظة: إني أرى أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذرياهم وتغنم أموالهم، فقال النبي ﷺ : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات)[2]. ولما اختلفوا إلى ابن مسعود شهراً في المفّوضة قال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله برئ منه، أرى أن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط ولها الميراث وعليها العدة، فقام ناس من أشجع فقالوا: نَشهدُ أن رسول الله ﷺ قضى في امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق مثل ما قضيت به، فما فرح ابن مسعود بشيء بعد الإسلام فرحهُ بذلك. وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا"[3].

وعقد ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) فصلاً بعنوان (الصحابة سادة المفتين والعلماء)، قال فيه: " وكما أن الصحابة سادة الأمة وأئمتها وقادها، فهم سادات المفتين والعلماء. قال الليث عن مجاهد: العلماء أصحاب محمد ﷺ ،

---

(١) سورة التوبة، الآية ٨٤.

(٢) أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى)، ج٣/ص٤٢٦، ط دار صادر – بيروت، وكذا الحاكم في (المستدرك)، الحديث رقم (٢٥٧٠)، ج٢/ص١٣٤ – ١٣٥، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت. وأورده الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم (٢٧٤٥)، ج٦/ص٥٥٦. وروى نحوه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب (مناقب الأنصار)، الباب (١٢)، الحديث رقم (٣٨٠٤)، ج٧/ص١٢٣. وكذا الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الجهاد والسير)، باب (جواز قتال من نقض العهد)، ج١٢/ص٩٤.

(٣) أعلام الموقعين، ج١/ص٨١.

وقال سعيد عن قتادة[1] في قوله تعالى ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[2]، قال: أصحاب محمد ﷺ "[3]، ثم أفاض - رحمه الله - في بيان علمهم وخصالهم وفضلهم[4].

ولكل ما تقدم يرى ابن القيم حجية قول الصحابي ووجوب اتباعه لمن جاء بعد عصر الصحابة، وقد بسط الكلام في ذلك فأقام عليه ستة وأربعين دليلاً[5].

فلا غرو بعد ذلك أن يستشهد ابن القيم بأقوال الصحابة رضي الله عنهم ويُعنى بسيرهم، وأن يتأسى بهم ويستمسك بهديهم، ويستمد من هذا الهدي قيم السلوك السوي في السير إلى الله، فقد كانوا – في نظره – مع فضلهم ودينهم وجهادهم وقلة تكلفهم أعلم الخلق بالله بعد رسله، وأعرف الناس بمقامات السالكين ومنازل السائرين إليه سبحانه[6].

ومن شواهد استمداده من هدي الصحابة واستشهاده بأقوالهم وأحوالهم مما يخص موضوع بحثنا هنا ما يلي:

---

(١) أبو الخطاب قتادة بن دعامة الدوسي، المفسر الحافظ، كان رأساً في التفسير والحديث ومفردات اللغة العربية، توفي بواسط سنة ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٥/ ص٢٦٩. وتهذيب التهذيب، ج٨/ ص٣٥١.

(٢) سورة سبأ، الآية ٦ .

(٣) أعلام الموقعين ، ج١/ ص١٤.

(٤) راجع : المصدر السابق، ج١/ص١٤ – ٢١.

(٥) راجع : المصدر السابق، ج٤/ص١٢٣ – ١٥٣.

(٦) انظر : مدارج السالكين، ج٣/ص٣٢٢.

١- يستشهد في معرض بيانه لحقيقة (التوبة النصوح) المذكورة في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[1]، يستشهد بما أُثر عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما أنهما قالا: "التوبة النصوح: أن يتوب - أي العبد - من الذنب، ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع"[2].

٢- وفي حديثه عن تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر يُورد آراء بعض الصحابة - كأبي هريرة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت رضي الله عنهم - في بيان المراد باللمم المذكور في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ الآية[3]، وينتهي إلى أن " الصحيح قول الجمهور، وهو: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة والغمزة والقُبلة ونحو ذلك، فهذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس..."[4].

٣- ويقرر أن التوبة محفوفة بمحاسبتين، ويستشهد بأثر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في المحاسبة، حيث يقول: "والتحقيق أن التوبة بين محاسبتين، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها...، وقد دل على المحاسبة قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[5] ، فأمر

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٨.

(٢) المصدر السابق ، ج١/ ص٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) سورة النجم ، الآية ٣٢.

(٤) المصدر السابق ، ج١/ ص٢٤٣.

(٥) سورة الحشر ، الآية ١٨.

سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر هل يصلح ما قدَّمه أن يلقى الله به أو لا يصلح ؟ . والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد وتقديم ما ينجيه من عـــذاب الله ويُبيِّض وجهه عند الله. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[1]) ، أو قال : (على من لا تخفـــى عليـــه أعمالكم) "[2].

٤- ويحتج بأحوال الصحابة في بطلان ما ذهب إليه المنحرفون مـــن أهـــل السلوك والتصوف في اشتراطهم لتمام مقام (التوبة) فناء العبد السالك وغيبتـــه عن شهود توبته وتوبته من رؤية هذه التوبة، ويطالبهم بالدليل على ما ذهبوا إليه من القرآن أو السنة أو كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم[3].

٥- ويقرر – في مقام (الخوف) – أن درجة الخوف من الله إنما تكون على حسب العلم بالله والقرب منه والمنـــزلة عنده، وأنه كلما كان العبد أعلم بـــالله وإليه أقرب كان خوفه منه أشد[4]، ويستشهد بأحوال الصحابة رضي الله عنهم في شدة خوفهم من الله، حيث يقول: " من تأمل أحوال الصـــحابة رضـــي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً بين التقصـــير بـــل

(١) سورة الحاقة، الآية ١٨.

(٢) المصدر السابق، ج١/ص١٣٥.

(٣) راجع: المصدر السابق، ج١/ ص٢٠٨-٢١١.

(٤) انظر: طريق الهجرتين، ص٥١١، ٥٢٢.

التفريط والأمن، فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: (وددتُ أني شعرة في جنب عبد مؤمن)، ذكره أحمد عنه، وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: (هـذا الذي أوردني الموارد)، وكان يبكي كثيراً ويقـول: (ابكـوا، فـإن لم تبكـوا فتباكوا). وكان إذا قام للصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأتى بطـائر فَقلَّبه ثم قال: (ما صِيْدَ من صَيْدٍ، ولا قُطعت شجرة من شجرة إلا بما ضَـيَّعَت من التسبيح). ولما اُحتُضِرَ قال لعائشة: (يا بُنية إني أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب)، وقـال: (والله وددتُ أني كنتُ هذه الشجرة تُؤكل وتعضد). وقال قتادة: (بلغني أن أبا بكـر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب).

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلـغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾[1] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: (ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر لي ثلاثاً)، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً. وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء...

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته، ويقول: (لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أَيتهما يُؤمر بي لاخترتُ أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أَصيرُ).

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: (فأما طول الأمل فيُنسي الآخـرة،

---

(١) سورة الطور، الآية ٧.

وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل).

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول: (إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علمتَ، فكيف عملتَ بما علمت؟) .

وكان يقول: (لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم).

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنه أسفل عينيه مثل الشِراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر رضي الله عنه يقول: (يا ليتني كنتُ شجرة تُعضد، ووددتُ أني لم أُخلق)...

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: (وددتُ أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي)... وقال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه) "[1].

٦- ويستنبط من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه)، يستنبط منه أن الرجاء متعلق بالرب تعالى، لأن رحمته من لوازم ذاته، وهي سبقت غضبه، وأما الخوف فمتعلق بالذنب فهو

---

(١) الجواب الكافي، ص٤٠ – ٤٢. ويستشهد أيضاً بخوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من فوات الإيمان. راجع: طريق الهجرتين، ص٥٢٢. والجواب الكافي، ص٤٢.

سبب المخافة[1].

٧- ويشير – في مقام (الزهد) – إلى كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام والحسن بن علي رضي الله عنهم، ويذكر أهم نماذج رائعة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع ما كان لهم من حظ في الدنيا، وأنه من سِيَرهم تُعرف حقيقة (الزهد) ومفهومه الصحيح[2].

٨- ويُورد في بيان حقيقة (الاستقامة) المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[3] ما أُثر عن الصحابة فيها، حيث يقول: " سُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة، فقال: (أن لا تشرك بالله شيئاً)، يريد الاستقامة على التوحيد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب). وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (استقاموا: أخلصوا العمل لله). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: (استقاموا: أدوا الفرائض) "[4].

٩- ويؤكد على ضرورة فعل الأسباب الجالبة للنفع والخير والدافعة للضر والشر مع التوكل على الله تعالى، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ولا يقدح فيه، وأن التجرد من هذه الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، ويرد على

---

(١) راجع: طريق الهجرتين، ص٥١٤ – ٥١٥.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ ص١١ – ١٢.

(٣) سورة الجن، الآية ١٦.

(٤) المصدر السابق، ج٢/ ص٧٩.

من انحرف عن المنهج الحق في هذه المسألة من بعض العُبَّاد والسالكين، ويحتج عليهم بحال النبي ﷺ وحال أصحابه رضي الله عنهم في التوكل. ومما قاله بهذا الشأن قوله: "... وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عرياناً – كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة –، واستأجر دليلاً مشركاً يدله طريق الهجرة، وقد هدى به العالمين وعصمه من الناس أجمعين، وكان يَدَّخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أوحج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه، وهم أولو التوكل حقاً. وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم. فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها، بها يُعلم صحيحها من سقيمها، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تُشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملئوا بذلك التوكل القلوبَ هدىً وإيماناً..."[1].

١٠- وفي تحليله لأسباب نشوء الصبر على البلاء؛ يذكر أن من هذه الأسباب: شهود ترتب البلاء على العبد بذنبه، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[2]، ويستشهد في ذلك بما أُثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع بلاءٌ إلا بتوبة)[3].

---

(١) المصدر السابق، ج٢/ص١٠٣.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٣) طريق الهجرتين، ص٤٩٩.

١١- ويستشهد في بيان فضل (الصبر) بالعديد من الآثار، منها: ما أُثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"[١]، وما أُثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "الصبر مطية لا تكبو"[٢]، وما أُثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر"[٣].

١٢- ويتابع أبا إسماعيل الأنصاري الهروي[٤] في أن احدى درجات (الصدق) لدى العبد السالك: أن لا يُحب أن يعيش إلا ليَشْبع من رضى محبوبه ويقوم بعبوديته، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه، لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها. ويستشهد في ذلك بما أُثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " لولا ثلاث لما أحببتُ البقاء: لولا أن أَحملُ على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر"[٥]، وبما أُثر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال عند موته: " اللهم إنك تَعلُم أني لم أكن أُحب البقاء لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَق الذكر"[٦].

---

(١) عدة الصابرين، ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢١، وص١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص١١٥.

(٤) سترد ترجمته – إن شاء الله – في المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٥) مدارج السالكين، ج٢/ص٢١٤. وانظر: مفتاح دار السعادة، ص١٢٣.

(٦) مدارج السالكين، ج٢/ص٢١٤.

المبحث الرابع: الزهاد والمتصوفة الأوائل:

لقد امتاز المتقدمون من الزهاد والمتصوفة وأرباب السلوك بمزايا عديدة، منها: صفاء القلوب، وصدق العزائم، وحسن السلوك. كما كانت لهم الإشارات البديعة، والتوجيهات النافعة فيما يتعلق بأعمال القلوب وآفات النفوس وتصحيح المعاملة مع الله عز وجل.

وقد أثنى ابن القيم على الكثير منهم، كسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي[1]، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري[2]، ويحيى بن معاذ الرازي[3]، وأبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله[4]، وغيرهم، وقال: " إنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً،...، وهم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة، ولهذا كلامهم قليل فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل

---

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، أبو طالب، الإمام الزاهد العارف، شيخ الصوفية، صاحب كتاب (قوت القلوب)، توفي سنة ٣٨٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٦/ص٥٣٦ – ٥٣٧ وشذرات الذهب، ج٣/ص١٢٠.

(٢) سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، أبو عثمان، الإمام المحدث الواعظ القدوة، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٧٠. وشذرات الذهب، ج٢/ص٢٣٠.

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، المحدث الواعظ، ومن كبار المشايخ، له كلام جيد مشهور في الوعظ والإرشاد، توفي سنة ٢٥٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٠٧. وشذرات الذهب، ج٢/ص١٣٨.

(٤) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، الإمام العابد القدوة، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج٥/ص١٠٣ – ١٠٥. وشذرات الذهب، ج١/ ص١٤٠.

البركة"[1].

وذكر أهم أعمق علماً من المتأخرين، وأقل تكلفاً، وأكمل بصائر، وكانت همتهم: مراعاة أصول السلوك، وضبط قواعدها، وشد معاقدها. وأن همهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء[2].

وحدد مجال نشاطهم بثلاثة ميادين رئيسة :

" أحدها: الكشف عن منازل السير.

الثاني: الكشف عن عيوب وآفات الأعمال ومفسداتها.

الثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة"[3].

وعَقَّبَ على ذلك فقال: " وهذه الأبواب الثلاثة هي مجامع علوم القوم، وعليها يحومون، وحولها يدندنون، وإليها يُشَمِّرون، فمنهم من جُلُّ كلامه ومعظمه في السير وصفة المنازل، ومنهم من جُلّ كلامه في الآفات والقواطع، ومنهم من جُلّ كلامه في التوحيد والمعرفة وحقائق الأسماء والصفات.

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق، فيستعين به على مطلبه، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به، فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم"[4].

ولكل ما تقدم أَكثَرَ ابن القيم من ذكر أقوال هؤلاء المتقدمين وأحوالهم، يستأنس بها – ويستدل بها أحياناً – في ما يذهب إليه ويقرره من مسائل في

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ ص١١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ص٢٥.

(٤) المصدر السابق.

منازل العبودية وتفصيلاتها، ولاسيما في كتابه (مدارج السالكين). ومن ذلك على سبيل المثال – لا الحصر – ما يلي :

١- يستشهد بأقوال بعضهم في تعريف (الخوف) وبيان حقائقه، حيث يقول: " قال أبو القاسم الجنيد: (الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس...)، وقال أبو حفص: (الخوف سوط الله يُقوِّم به الشاردين عن بابه)، وقال: (الخوف سراج في القلب به يُبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه...)، وقال أبو سليمان الداراني: (ما فارق الخوف قلباً إلا خرب)، وقال إبراهيم بن سفيان: (إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها)، وقال ذو النون: (الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق)"[١].

٢- ويذكر ما أُثر عنهم في تعريف (الزهد) وبيان حقائقه وفضائله، فيقول: " قال سفيان الثوري: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء...)، وقال يحيى بن معاذ: (الزهد يُورث السخاء بالملك، والحب يُورث السخاء بالروح...)، وقال ابن الجلاء: (الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها)، وقال ابن خفيف[٢]: (الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك)، وقال أيضاً: (الزهد

---

(١) المصدر السابق، ج١/ ص٣٨٦ – ٣٨٨.

(٢) محمد بن خفيف الضبي الفارسي الشيرازي، أبو عبد الله، أحد مشاهير الصوفية، ومن أولاد الأمراء، كان شيخ إقليم فارسي، توفي سنة ٣٧١هـ. انظر: البداية والنهاية، ج١١/ص٣١٩. وسير أعلام النبلاء، ج١٦/ص٣٤٢ – ٣٤٧.

سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك)،... وقال الجنيد: (الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد) . وقال الإمام أحمد: (الزهد في الدنيا قصر الأمل)،... وقال عبد الله بن المبارك: (هو الثقة بالله مع حب الفقر)،... وقال عبد الواحد بن زيد: (الزهد: الزهد في الدينار والدرهم)، وقال أبو سليمان الداراني: (ترك ما يشغل عن الله)، وهو قول الشبلي. وسأل رُويم الجنيد عن الزهد ؟ ، فقال: (استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب)، وقال مرة: (هو خلو اليد عن الملك والقلب عن التتبع)،... وقال الإمام أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين) "[١].

٣- ويذكر ما أُثر عنهم في تعريف (المراقبة) وبيان حقيقتها، فيقول: " قال الجنيد: (من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير)، قال ذو النون: (علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغَّر الله)،... وقال إبراهيم الخواص: (المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل)،... وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته"[٢].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص١٠ – ١١.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ص٥٠.

٤- وبعد أن ذكر الآيات الواردة في منـــزلة (الإخلاص)، ومنها قولـــه تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1]، يُورد ما أُثر عن الفضيل بن عياض رحمه الله في بيان معنى عبارة (أيكم أحسن عملاً) الواردة في الآية الكريمة، فيقول: " قال الفضيل بن عياض: (هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ ، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صـــواباً. والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة)، ثم قرأ قولـــه تعـــالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[2] "[3].

كما يُورد ما أُثر عنه وعن غيره من أرباب السلوك من أقوال في حقيقـــة (الإخلاص) وقيمته وفضله، فيقول: "... ومن كلام الفضيل: (ترك العمل مـــن أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخـــلاص أن يُعافيـــك الله منهما)، وقال الجنيد: (الإخلاص سرٌ بين الله والعبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله)،... وقال مكحول: (ما أخلص عبـــدٌ قـــط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)،... وقال أبو سليمان الداراني: (إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء) "[4].

---

(١) سورة الملك، الآية ٢.

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ص٦٨.

(٤) المصدر السابق، ج٢/ص٧٠.

٥- ويُورد أقوال بعضهم في بيان حقيقة (التوكل) ودرجاته، فيقول: " قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب)،... وقال سهل: (التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد)،... وسُئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً ؟ ، فقال: (إذا رضي الله وكيلاً)،... وقال ابن عطاء: (التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها)،... وقال ذو النون: (هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه)،... وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد ،... وقال أبو علي الدقاق: (التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض. فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. فالتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية).

فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين...، والتوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين"[١].

٦- كما يُورد أقوال بعضهم في بيان حقيقة (الصبر)، فيقول: " سُئل الجنيد بن محمد عن الصبر ؟ ، فقال: (تجرع المرارة من غير تعبس). وقال ذو النون: (هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة)...، وقال عمرو بن عثمان المكي:

---

(١) المصدر السابق، ج٢/ ص٨٧ – ٨٩.

(الصبر هو الثبات مع الله وتلقّي بلائه بالرحب والدعة)...، وقال الخواص: (الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة) "[1].

ويستشهد في بيان فضل (الصبر) بما أُثر عنهم في ذلك، فيقول: " قال الحسن: (الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده)، وقال عمر بن عبد العزيز: (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ماعوضه خيراً مما انتزعه)، وقال سليمان بن القاسم[2]: (كل عمل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3]، قال: كالماء المنهمر)...، وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[4] : (لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً) "[5].

٧- ويُورد كذلك كلماتهم في بيان حقيقة (الصدق) وفضله، فيقول: " قال عبد الواحد بن زيد: (الصدق الوفاء لله بالعمل)...، وقال إبراهيم الخواص: (الصادق لا تراه إلا في فرض يُؤدّيه أو فضل يعمل فيه)، وقال الجنيد: (حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب)...، وقال

---

(١) عدة الصابرين، ص٢١.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) سورة الزمر، الآية ١٠.

(٤) سورة السجدة، الآية ٢٤.

(٥) المصدر السابق، ص١٠٢.

يوسف بن أسباط[1]: (لأن أَبيتُ ليلة أعاملُ اللهَ بالصدق أَحبُ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله) "[2].

٨- ويستشهد في معرض بيانه لفضل (الذكر) وقيمته بما أُثر عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: " تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق"[3].

ويستمد حكمه بأن حياة القلوب إنما تكون بدوام ذكر الله وترك الذنوب والمعاصي من قول عبد الله بن المبارك رحمه الله :

"رأيتُ الذنوب تُميتُ القلوب وقد يُورث الذلَّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها"[4]

٩- ويدعم بأقوالهم ما ذهب إليه في الضابط الثالث من ضرورة (الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما)، فيقول: " قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد ابن محمد رحمه الله: (من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بأصول الكتاب والسنة)...، وقال أبو حفص رحمه الله: (من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا يُعدُّ في ديوان الرجال)، وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: (ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبله منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب،

(١) يوسف بن أسباط الشيباني، الزاهد الورع، له مواعظ وحكم، يروي عن سفيان الثوري وغيره، وقد وثقه ابن معين. انظر: طبقات الصوفية، ص٣٦. وسير أعلام النبلاء، ج٩/ص١٦٩ – ١٧١.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٠٨ – ٢١٢.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ ص٣١٧.

(٤) المصدر السابق، ج٣/ ص١٩٧.

والسنة)، وقال أبو يزيد: (لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنـــهي وحفـــظ الحدود وأداء الشريعة) "[1].

١٠- ويستشهد بأقوالهم في الضابط الرابع من ضرورة (متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به)، فيقول: " قال الجنيد بن محمد رحمه الله: (الطرق كلها مســـدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتّبع سنته ولزم طريقته، فـــإن طُـــرُق الخيرات كلها مفتوحة عليه)، وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: (من عمـــل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله). وقال ابن عطاء: (من ألزم نفسه آداب السنة نَوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيـــب في أوامـــره وأفعاله وأخلاقه"[2].

١١- كما يستشهد في الضابط الخامس من ضرورة (تعلم العلم الشرعي) بما نُقل عن أبي عمرو بن نجيد أنه قال: " كل حال لا يكون نتيجة علم، فـــإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه"[3].

---

(١) المصدر السابق، ج٢/ص٣٤٨. وانظر: إغاثة اللهفان، ص١٣٣.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ ص٣٤٩.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ ص٣٥٠.

المبحث الخامس: الشيخ أبو إسماعيل الهروي[1]:

الشيخ أبو إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ، شيخ خراسان في عصره، ومن كبار الحنابلة، كان بارعاً في اللغة، حافظاً للحديث، عارفاً بالتاريخ والأنساب، مظهراً للسنة داعياً إليها، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فكان يَدخل على الأمراء والجبابرة لذلك ولا يُبالي. كان عصره بداية الاصطدام القوي بين الحنابلة والأشاعرة، وكان سيفاً مسلولاً على المتكلمين، ولذا ألف كتابه (ذم الكلام وأهله). ولقوة اعتقاده بسلامة مذهب الحنابلة تحمَّل في سبيله الكثير من المشاق، فامتُحن وأُوذي. يقول - رحمه الله -: " عُرِضْتُ على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، ولكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت"[2].

ومن كتبه: (الفاروق في الصفات)، و(كتاب الأربعين) في التوحيد، و(الأربعين) في السنة، و(منازل السائرين) في السلوك والتصوف، و(سيرة الإمام أحمد بن حنبل).

انتقل من ذم الكلام بوصفه مجال علق به غبار من آثار الثقافات الدخيلة إلى مجال التصوف عند المتأخرين الذي لم يخل هو الآخر من صبغة هذه الثقافات. ولذا انتُقد من قِبل بعض أعلام المنهج السلفي كابن تيمية

---

(١) راجع ترجمته في كل من: سير أعلام النبلاء – للذهبي، ج١٨/ ص٥٠٣ – ٥١٨. والذيل على طبقات الحنابلة – لابن رجب الحنبلي، ج١/ ص٥٠ – ٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج١٨/ ص٥٠٩.

والذهبي[1] وابن القيم – كما سيأتي – وغيرهم[2].

قَسَّمَ الهروي كتابه (منازل السائرين) إلى عشرة أقسام يَتدرَّج فيها السائر إلى الله عز وجل، وهي أقسام: البدايات، والأبواب، والمعاملات، والأخلاق، والأصول، والأدوية، والأحوال، والولايات، والحقائق، والنهايات. وجعل لكل قسم عشر منازل، وبذلك يبلغ عدد منازل السائرين إلى الله تعالى مائة منزلة.

وقد استشهد الهروي في كتابه هذا بالكثير من الآيات القرآنية محاولاً إيجاد الصلة بينها ومقامات الصوفية وأحوالهم، وكأنَّه يتَّجهُ بهذا المنهج إلى الجمع بين إثبات إخلاصه لطريقة السلف والبرهنة على صدق نظريات بعض متأخري الصوفية ورجحانها.

ولما كان طريق المتصوفة المتأخرين لم يخل من شطحات في الفكر أو في السلوك أو فيهما معاً، فقد كان لغيرهم مواقف منهم يجملها ابن القيم في ثلاثة مواقف[3]:

أحدها: موقف من حجبوا بشطحات القوم عن محاسنهم ولطف نفوسهم

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، أبو عبد الله، الإمام الحافظ المؤرخ، شيخ الجرح والتعديل، وصاحب التصانيف الجمة الحسنة، توفي سنة ٧٤٨هـ. انظر: شذرات الذهب، ج٦/ص١٥٣. والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – لابن حجر، ج٣/ ص٤٢٦ – ٤٢٧.

(٢) حاول الدكتور مصطفى حلمي أن يبحث في سبب اختيار أبي إسماعيل الهروي لطريق التصوف الذي كان عليه كثير من الصوفية المتأخرين بدلاً من الالتزام بمنهج الزهد الذي كان عليه أرباب السلوك الأوائل. راجع كتابه (التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث)، ص٦– ٨، ط دار الدعوة بالإسكندرية.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ج٢/ص٣٠.

وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً.

ويرى ابن القيم خطأ أصحاب هذا الموقف، فيقول: " وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها"(١).

الثاني: موقف الذين حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء – في نظر ابن القيم – أيضاً مُعْتَدون مُفرِّطون.

الثالث: موقف أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُرد.

وقد وقف ابن القيم من أبي إسماعيل الهروي – وغيره من المتصوفة – الموقف الثالث، وهو موقف العدل والإنصاف، فاستفاد كثيراً من كتابه (منازل السائرين) في تحديد منازل العبودية وقيم السلوك في السير إلى الله عز وجل، فجاء كتابه (مدارج السالكين) شرحاً ممتعاً وافياً وسهلاً ميسراً لكتاب (المنازل)، حاول فيه ابن القيم إبراز ما فيه من حق وخير وتأكيدهما وزيادتهما بياناً وإيضاحاً، وتقويم ما فيه من شطحات، وتهذيب ما فيه من هَنَّات، فكان يعرض

(١) المصدر السابق.

ما تضمنه من أحكام وأحوال وأقوال على الكتاب والسنة، فيقبل ما وافقهما ويرد ما خالفهما.

والمتفحص لكتاب (المدارج) يجد أن ابن القيم قد استأنس بما جاء من حق في كتاب (المنازل)، ووافق الهروي على كثير مما قرره فيه، وأنه كان بمثابة الملهم له في كثير مما أتى به من مباحث وقضايا ومسائل في كتابه (المدارج)، حيث كان ينطلق – مستطرداً – من بعض أفكار الهروي، فيأتي بالكثير من التفصيلات العلمية، والخاطرات الدقيقة، وقواعد السلوك الهامة، يقدمها للسالكين لينهلوا منها، فيهتدوا بها إلى الحق وسبل الرشاد.

وقد أثنى ابن القيم على الهروي وبَيَّن رأيه فيه، فقال: " وصاحب المنازل -رحمه الله – كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب (الفاروق) استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها، و لم يُسبق إلى مثله، وكتاب (ذم الكلام وأهله) طريقته فيه أحسن طريقة، وكتاب لطيف في أصول الدين، يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وسعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم على عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير ما دل عليه الكتاب والسنة.

ولكنه – رحمه الله – كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات، فإنه لا يقدم على الفناء شيئاً، ويراه الغاية التي يُشَمِّر إليها السالكون، والعَلَم الذي يَؤمه السائرون، واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع، وعَظُم موقعه عنده، واتسعت إشارته إليه، وتَنوَّعت به الطرق الموصلة إليه علماً وحالاً وذوقاً، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية، بادياً على صفحات كلامه، وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفي الصفات.

ولما اجتمع التعطيلان لمن اجتمعا له – من السالكين – تَولّد منهما القول بوحدة الوجود، المتضمن لإنكار الصانع وصفاته وعبوديته، وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في إثبات الصفات، فأشرف من عقبة الفناء على وادي الاتحاد بأرض الحلول فلم يسلك فيها. ولوقوفه على عقبته، وإشرافه على تلك الربوع الخراب، ودعوة الخلق إلى الوقوف على تلك العقبة، أقسمت الاتحادية بالله جهد أيمانهم إنه لمعهم ومنهم، وحاشاه.

وتولى شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفِرَق (العفيف التلمساني) [1]، ونَزَّل الجمع الذي يشير إليه صاحب المنازل على جمع الوجود، وهو لم يَرِد به – حيث ذكره – إلا جمع الشهود، ولكن الألفاظ مجملة وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] "[3].

ولكن ثناء ابن القيم على الهروي وتقديره له واستفادته منه الفوائد الكثيرة في موضوع بحثنا هذا لم تمنعه من نقده له، ومعارضته إياه في الكثير من المقامات والأحوال وتفاصيل مسائلها.

---

(١) أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، الشاعر المتقن، والمتفنن في علوم النحو والأدب والفقه والأصول، نُسب إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٣٤٥.

(٢) سورة النور، الآية ٤٠.

(٣) مدارج السالكين، ج١/ ص٢٠٤ – ٢٠٥. وراجع ما جاء في ج٢/ ص٦٥ – ٦٦، وفي ج٣ / ص٣٨٤.

ويتأرجح هذا النقد وتلك المعارضة بين اللين والشدة بحسب قُرب أو بُعد كلام الهروي من الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال ومواقف سلف الأمة، مع الحرص على الالتزام بالأدب والتواضع والعدل والإنصاف في مخالفته للهروي ورده عليه، والتماس الأعذار له، وحمل كلامه على أحسن محامله، لِما عَرفهُ عنه ولَمسهُ فيه من صحة الإيمان وقوة الإخلاص وحب الحق والذب عن السنة. ولذا كثيراً ما نطالع في كتابه (المدارج) أمثال قوله عنه: " شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نُبيِّن ما فيه"[١]، وقوله: " هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجى مغفراتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد. ولم تُضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ "[٢]، وقوله أيضاً: " ولولا أن حق الحق أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك[٣] فسحة ومُتسع"[٤]، وقوله كذلك: " والله يُشكر لشيخ الإسلام سعيه ويُعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وَجدَ مريدهُ سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل. كيف وقد نفعه الله بكلامه ؟ ، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً ؟ "[٥].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ص٢٨.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ ص٣٠.

(٣) يعني: في الإمساك عن الاعتراض والنقد.

(٤) المصدر السابق، ج٢/ ص٣٣.

(٥) المصدر السابق، ج٢/ ص٣٩.

ومن المسائل الكثيرة التي عارض فيها ابن القيم الهروي وانتقده فيها - على سبيل المثال لا الحصر - ما يلي :

١- أن الهروي عَدَّ من منازل السائرين منزلة (الحزن)[١]، فخالفه ابن القيم في ذلك، واستدرك عليه بقوله: " ليس من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها، وإن كان لابد للسالك من نزولها. ولم يأتِ (الحزن) في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً. فالمنهي عنه كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾[٢]، وقوله ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾[٣] في غير موضع، وقوله ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[٤]. والمنفي كقوله ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٥]. وسر ذلك: أن (الحزن) موقف غير مُسَيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يُحَزِّن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٦]، ونهى النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجى اثنان منهم منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه[٧]. فالحزن ليس بمطلوب ولا مقصود ولا فيه

(١) راجع: منازل السائرين، ص٥٧، تحقيق وتعليق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٧.

(٤) سورة التوبة، الآية ٤٠.

(٥) سورة البقرة، الآية ٣٨.

(٦) سورة المجادلة، الآية ١٠.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب (الاستئذان)، الباب (٤٧)، الحديث رقم (٦٢٩٠)، ج١١/ص٨٢ - ٨٣. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب (السلام)، باب (تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه)، ج١٤/ص١٦٨.

فائدة، وقد استعاذ منه النبي ﷺ ، فقال: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن"[1]، فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب إن كان لِما يُستقبل أورثه الهم، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مضعفٌ للقلب عن السير، مُفتِّرٌ للعزم. ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[2] ، فهذا يدل على أهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما تصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم...

وأما الخبر المروي (إن الله يحب كل قلب حزين) فلا يُعرف إسناده، ولا من رواه، ولا تُعلم صحته. وعلى تقدير صحته، فالحزن مصيبة من المصائب التي يَبتلي الله بها عبدَه، فإذا ابتَلي به العبد فصبر عليه أحب صبره على بلائه...

وأجمع أرباب السلوك على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحِيري[3] فإنه قال: (الحزن بكل وجه فضيلة وزيادة للمؤمن ما لم يكن بسبب معصية، لأنه إن لم يُوجب تخصيصاً فإنه يوجب تمحيصاً). فيقال: لا ريب أنه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الدعوات)، الباب (٤٠)، الحديث رقم (٦٣٦٩)، ج١١/ص١٧٨.

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٤.

(٣) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري، أبو عثمان، أصله من الري، صحب يحيى بن معاذ الرازي وشاه بن شجاع الكرماني، رحل إلى نيسابور ونشر فيها طريقة التصوف، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، ص١٧٠.

محنة وبلاء من الله، بمنــزلة المرض والهم والغم، وأما أنه من منازل الطريق فلا، والله سبحانه أعلم"[١].

٢- ولما جعل الهروي منــزلة (التهذيب والتصفية) على ثلاث درجات، وقال في الدرجة الثانية منها أنها: " تهذيب الحال، وهو أن لا يجــنح الحــال إلى علم"[٢]، اعترض عليه ابن القيم، فقال معقباً: " أما جنوح الحال إلى العلم فهــو نوعان: ممدوح ومذموم. فالممدوح: التفاته إليه، وإصغاؤه إلى مــا يــأمر بــه، وتحكيمه عليه. فمتى لم يجنح إليه هذا الجنوح كان حالاً مذموماً ناقصاً مبعداً عن الله، فإن كل حال لا يصحبه علم: يُخاف عليه أن يكون من خدع الشــيطان. وهذا القدر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم، وعلى أهل الثغــور ثغورهم، وشرَّدهم عن الله كل مشرد، وطردهم عنه كــل مطــرد، حيــث لم يَحكِّموا عليه العلم، وأعرضوا عنه صفحاً حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام...

والبلية التي عرضت لهؤلاء: أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتــدعوا إليــه، وأحكام الحال تتعلق بالكشف. وصاحب الحال تَرِدُ عليه أمور ليست في طــور العلم، فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال، فلم يجد بُدّاً من الحكم على أحدهما بالإبطال. فمن حصلت له أحوال الكشف ثم جنح إلى أحكام العلم، فقد رجع القهقرى وتأخر في سيره إلى وراء.

فتأمل هذا الوارد وهذه الشبهة التي هي سمٌ ناقعٌ تخــرج صــاحبها مــن المعرفة والدين كإخراج الشعرة من العجين. واعلم أن المعرفة الصــحيحة هــي

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ ص٣٨١ – ٣٨٣.

(٢) منازل السائرين، ص٧٦.

روح العلم. والحال الصحيح هو روح العمل المستقيم، فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم، فهو بمنـــزلة الروح الخبيثة الفاجرة. ولا يُنكــر أن يكون لهذه الروح أحوال، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها، فمـــتى عارض الحال حكم من أحكام العلم فذلك الحال إما فاسد وإمـــا نـــاقص ولا يكون مستقيماً أبداً. فالعلم الصحيح والعمل المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح، وهما كالبدنين لروحيهما.

فأحسن ما يُحمل عليه قوله (أن لا يجنح الحال إلى العلم): أن العلم يدعو إلى التفرقة دائماً، والحال يدعو إلى الجمعية، والقلب بين هذين الداعيين، فهـــو يُجيب هذا مرة وهذا مرة. فتهذيب الحال وتصفيته: أن يجيب داعي الحـــال لا داعي العلم. ولا يلزم من هذا إعراضه عن العلم وعدم تحكيمه والتسليم له، بل هو مُتعبّد بالعلم مُحكِّم له مستسلم له غير مجيب لداعيه من التفرقة، بـــل هـــو مجيبٌ لداعي الحال والجمعية، آخذٌ من العلم ما يصحح له حاله وجمعيته، غـــير مستغرق فيه استغراق من هو مطرح همته وغاية مقصده، لا مطلوب له ســـواه، ولا مراد له إلا إياه. فالعلم عنده آلة ووسيلة وطريـــق توصـــله إلى مقصـــده ومطلوبه، فهو كالدليل بين يديه يدعوه إلى الطريق ويدله عليها، فهـــو يجيـــب داعيه للدلالة ومعرفة الطريق وما في قلبه من ملاحظة مقصده ومطلبه من سيره وسفره وباعث همته على الخروج من أوطانه ومَرْباه ومن بين أصحابه وخلطائه، الحامل له على الاغتراب والتفرد في طريق الطلب: هو المســـير لـــه والمحـــرك والباعث، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزئيات أحوال الدليل وما هو خارج عن دلالته على طريقه.

فهذا مقصد شيخ الإسلام - إن شاء الله تعالى - لا الوجه الأول، والله سبحانه وتعالى أعلم"[1].

٣- ولمّا قال الهروي في حديثه عن منزلة (الشكر): " وهو أيضاً من سُبُل العامة"[2]، عَقّب عليه ابن القيم بقوله: " يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل، إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السُبل. بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه عليهم السلام أجمعين - أخص خلقه وأقربهم إليه. ويا عجباً ! ، أي مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة، والرضى، والتوكل وغيرها ؟ ، فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها. وتالله ليس لخواص أولياء الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى "[3].

٤- ولمّا صَدَّر الهروي منزلة (الانبساط) بقوله تعالى ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ** ﴾[4] [5]، اعترض عليه ابن القيم، فقال: " وقد غلط صاحب المنازل حيث صَدَّر هذه المنزلة بقوله تعالى - حاكياً عن كليمه موسى عليه الصلاة والسلام - ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ** ﴾[6] ، وكأنه فهم من هذا الخطاب انبساطاً بين موسى وبين الله تعالى حمله

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ ص٧٦ - ٧٧.

(٢) منازل السائرين، ص٩١.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ ص١٩٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٥) راجع: منازل السائرين، ص١٠٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

على أن قال: (إن هي إلا فتنتك)... وكل هذا وهم، وفهم خلاف المقصود، فالفتنة ههنا هي الامتحان والاختبار، كقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[1]، وقوله ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[2] ... والمعنى: أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك وامتحان تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، فأي تَعلُّق لهذا بالانبساط ؟ ، وهل هذا إلا توحيد وشهود للحكمة وسؤال للعصمة والمغفرة ؟ ، وليس للعارف في هذه المنزلة حظ مع الله، وإنما هي متعلقة بالخلق"[3].

٥- ولمّا قال الهروي في حديثه عن منزلة (الذكر): " قال الله عز وجل ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[4] ، يعني: إذا انسيت غيره، ونسيت نفسك في ذكرك، ذكرك، ثم نسيت ذكرك في ذكرك، ثم نسيت في ذكر الحق إياك كل ذكر"[5]، عارضه ابن القيم في الاستدلال بهذه الآية وتفسيرها، فقال: " ليته – قدَّس الله روحه – لم يقل[6]، فلا والله ما عنى الله هذا المعنى، ولا هو مراد الآية، ولا تفسيرها عند أحد من السلف ولا من الخلف. وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوَّزه ابن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٣.

(٢) سورة الجن، الآية ١٦.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ ص٢٦٨ – ٢٦٩.

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٤.

(٥) منازل السائرين، ص١١٤.

(٦) يقصد: ليته لم يقل كلامه السابق في معنى الآية الكريمة.

عباس وتأوَّل عليه الآية، وهو الصواب...، والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً، ولم يقل (إن شاء الله)، فَتَلبَّث الوحي أياماً، ثم نزلت هذه الآية. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء، ثم ذكرت فاستثن"[1].

٦- ولما جعل الهروي (الهيمان) في أعلى المنازل[2]، خَطَّأه ابن القيم وعارضه في ذلك، فقال: " وليس ذلك من مقامات السير، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين، خلافاً لصاحب المنازل، حيث عَدَّ ذلك من أعلى المنازل وغاياتها، وعَبَّر عنه بمنزلة (الهيمان)، وليس له ذكر في القرآن ولا في السنة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلَّف له صاحب المنازل الاستشهاد بقوله تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[3]، ما أبعد الآية من استشهاده، وكأنه ظن أن موسى ذهب عن تماسكه لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي، فأورثه ذلك هيماناً صُعق منه. وليس كما ظنه، وإنما صُعق موسى عند تجلي الرب تعالى للجبل واضمحلاله وتدكدكه من تجلي الرب تعالى"[4].

---

(١) مدارج السالكين، ج٢/ ص٣٢٣ – ٣٢٤.

(٢) راجع: منازل السائرين، ص١٤٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٤) مدارج السالكين، ج٣/ ص٦٢.

المبحث السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية:

شيخ الإسلام ابن تيمية، هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، العالم الرباني، والمجاهد والمجدد الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأبرز أعلام السلفية في مرحلتها الثانية[1]، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي وهو ابن احدى وعشرين سنة، بلغ الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والأناة، والتواضع والحلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، وحسن التوجه والقصد. فاق الأقران وحاز قصب السبق في مختلف العلوم، ولاسيما العقيدة والسلوك والتفسير، والحديث وأسانيده ونقد الرجال، والفقه وأصوله، وعلوم العربية. دعا إلى التوحيد الخالص القائم على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وحارب التدين الزائف القائم على الاعتقاد بالحلول والاتحاد لدى الصوفية الوجودية، كما حارب البدع والشرك والخرافات واتخاذ قبور الأولياء والصالحين أماكن مقدسة تُزار وتُشد إليها الرحال. وبث روح التجديد في الفكر الإسلامي بفتح باب الاجتهاد ومحاربة الجمود والتعصب المذهبي، وشن غارات قوية على النصيرية والباطنية بالشام مبيناً خطورة مذهبهم، وناقش عقائد الفرق المختلفة كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والجهمية نقاشاً قوياً مبيناً مواطن الضعف والخلل فيها، ودخل في مناظرات طويلة مع الفلاسفة والمتكلمين، وانتقد الفلسفة اليونانية ونقض المنطق الأرسطي.

---

(١) راجع: كتابي (المنهج السلفي: تعريفه، تاريخه، مجالاته، قواعده، خصائصه)، في الصفحات: ٧٢ – ٩٦، ط الثانية عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مطابع الحميضي – الرياض.

وقد لقي – رحمه الله – العنت وتكبَّد المشاق الكثيرة بسبب مواقفه تلك من الفرق المختلفة وخصومته لعلم الكلام وطعونه في الصوفية ومشائخها، وكذلك بسبب آرائه الجريئة التي ساقته إليها اجتهاداته المُدعَّمة بالأدلة، والتي سَفَّه بها بعض الآراء الفقهية، حيث اضطهد من قِبَل خصومه، وأُوذي وسُجن مرات عديدة في القاهرة والاسكندرية، ودمشق، ولكنه ظل صابراً محتسباً لا يُبالي بما يلقى من الأذى في سبيل دعوته إلى أن وافاه الأجل وهو محبوس بقلعة دمشق في ليلة الاثنين؛ العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وقد خَلَّف ثروة فكرية وفقهية عظيمة تمثَّلت في حوالي خمسمائة مؤلف، أشغلت الباحثين من بعده في دراستها وتحقيقها وتحليلها وترجمتها.

وقد تقدم معنا في التمهيد أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان أبرز العلماء الذين تتلمذ ابن القيم على أيديهم، حيث لازمه ستة عشر عاماً[١]، فكان لهذه الملازمة والصحبة الطويلة الأثر الإيجابي البالغ في تكوينه العلمي الشرعي، وفي تصحيح مساره العقدي[٢]، وتوجيه فكره، وتحديد منهجه وسلوكه، حيث نهل من علومه ومعارفه، واتبع مذهبه، وهذَّب كتبه، وانتصر لغالب أقواله وآرائه[٣]، وشاركه في جهاده الفكري العقدي واجتهاده الفقهي، " حتى صار أبرع

---

(١) فقد حدد المؤرخون تاريخ لقاء ابن القيم بشيخه ابن تيمية وملازمته له وأخذه عنه بعودة ابن تيمية إلى دمشق قادماً من الديار المصرية عام ٧١٢هـ، وحتى وفاته عام ٧٢٨هـ. انظر: الدرر الكامنة – لابن حجر، ج٤/ ص٢١. والبداية والنهاية – لابن كثير، ج١٤/ ص٢٤٦.

(٢) راجع ما قاله ابن القيم بهذا الشأن في نونيته المشهورة والمعروفة بالكافية الشافية، ص١٨٠-١٨١، ط الأولى عام ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار ابن خزيمة للنشر – الرياض.

(٣) انظر: الدرر الكامنة – لابن حجر، ج٤/ ص٢١. والبداية والنهاية – لابن كثير، ج١٤/ص٢٤٦.

تلاميذه وألمعهم نجماً وأجلاهم اسماً، فلا يكاد يُذكر ابن تيمية إلا ويُذكر معه تلميذه ابن القيم، وسرى نور هذين العالِمين في آفاق المعمورة بسعة العلم وأصالة الفكر والتجديد في دعوة الناس إلى صراط الله المستقيم"[1].

وقد حصل لابن القيم بسبب مشاركته لشيخه ابن تيمية في جهاده واجتهاده، وتمسكه بمذهبه، ومناصرته له في ذات الله الكثير من الأذى، فقد امتُحن وأُوذي وحُبس بقلعة دمشق بعد ما أُهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، و لم يُفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه[2].

ويبين لنا ابن القيم تأثير ما رآه من شيخه في نفسه، فيُسجل طرفاً من سجاياه وفضائله التي شاهدها فيه وعرفها عنه، وشيئاً من وصاياه وتوجيهاته له. أما السجايا والفضائل، فمنها :

١- تواضع شيخ الإسلام ابن تيمية، وإخلاصه في عبادة الله، وحرصه على البعد عن الرياء، وإخفاء أحواله مع الله عن الخلق، ليصح له سيره إلى الله. وفي هذا يقول ابن القيم: " ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قَدَّس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيراً : (مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء)، وكان كثيراً ما يتمثَّل بهذا البيت :

أنا المُكْدي[3] وابن المُكْدي   وهكذا كان أَبي وجَدّي

---

(١) التقريب لفقه ابن القيم - للشيخ بكر أبو زيد، ج١/ ص١٠٩.

(٢) انظر في هذا كلاً من: الدرر الكامنة، ج٤/ ص٢١. والذيل على طبقات الحنابلة - لابن رجب الحنبلي، ج٢/ ص٤٤٨.

(٣) المكدي: أي قليل العطاء، الفقير المسكين. انظر: لسان العرب - لابن منظور، مادة (كدا).

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: (والله إني إلى الآن أُجدد إسـلامي كل وقت، وما أَسلمتُ بَعْدُ إسلاماً جيداً)، وبَعثَ إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

(أنـا الفقـير إلى رب البرِيَّـاتِ | أنا المسيكين في مجموع حـالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظـالمتي | والخير إن يأتنا من عنـده يـأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعـة | ولا عن النفس لي دفع المضرات)"[1]

إلى آخر الأبيات.

٢- حرصه على ذكر الله ومداومته عليه، وفي هذا يقول ابن القيم: " ومن تجريبات السالكين التي جرَّبوها فأَلْفوها صحيحة: أن من أدمن (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيميـة – قدس الله روحه – شديد اللهج بها جداً. وقال لي يوماً: (لهذين الاسمـين – وهما الحي القيوم – تأثيرٌ عظيمٌ في حياة القلب)، وكان يُشير إلى أنهما الاسـم الأعظم، وسمعته يقول: (من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجـر وصلاة الفجر: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث. حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه) "[2].

٣- إحسانه إلى من أساء إليه، ومعاملته بضد ما عامله به، وفي هذا يقـول ابن القيم: " ما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه –، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وَدِدتُ أني لأصـحابي

---

(١) مدارج السالكين، ج١/ ص٣٩٥ – ٣٩٦.
(٢) المصدر السابق، ج١/ص ٣٣٩.

مثله لأعدائه وخصومه). وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئتُ يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتَنكَّرَ لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فَعزَّاهم، وقال: (إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه)، ونحو هذا من الكلام، فَسُرّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه"[1].

٤- قوة فراسته رحمه الله، وفي هذا يقول ابن القيم: " لقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً ". وبعد ذكره لبعض هذه الوقائع ختم كلامه بقوله: " وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه و لم ينطق به لساني، وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، و لم يُعين أوقاتها، وقد رأيتُ بعضها وأنا أنتظر بقيتها. وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته"[2].

وأما الوصايا والتوجيهات، فمنها :

١- توجيهه له بدفع الشبهات عن قلبه، وفي هذا يقول ابن القيم: " قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية – رضي الله عنه – وقد جَعلْتُ أُورد عليه إيراداً بعد إيراد-: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فَيتشرّبها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها،

---

(١) المصدر السابق، ج٢/ ص٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ ص٣٦٦ – ٣٦٧.

فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشربتَ قلبك كل شبهة تمر عليها، صار مَقراً للشبهات)، فما أعلم أني انتفعتُ بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك"[1].

٢- توجيهه له بترك التوسع في المباح، وفي هذا يقول ابن القيم: " قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح: (هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة)...، فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح بزرخاً بين الحلال والحرام"[2].

٣- وتوجيهه له في ترويض نفسه على ما يمر بها من عوارض ومحن، وفي هذا يقول ابن القيم: " قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرة: (العوارض والمحن هي كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما، و لم يغتم لذلك و لم يحزن) "[3].

ولقد تأثر ابن القيم كثيراً بأقوال شيخه وأحواله في منازل العبودية لله عز وجل، فكانت بحقٍ مصدراً مهماً من مصادره في تقرير هذه المنازل ومسائلها وقيمها.

ومما يؤكد هذا التأثر إكثاره - رحمه الله - من الاستشهاد بهذه الأقوال والأحوال والاستئناس بها. ومن ذلك على سبيل المثال ما يلي :

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص١٤٤.

(٢) مدارج السالكين، ج٢/ ص٢٠.

(٣) المصدر السابق، ج٣/ ص٢٨٩.

١- استشهاده بقول شيخه في معرض بيانه لحقيقة الخوف المحمود، حيث يقول: "والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه ومحارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط...، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قَدَّسَ الله روحه - يقول: (الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله) "[(١)].

٢- استئناسه بقول شيخه في تعريف (الزهد) وبيان حقيقته، حيث يقول: " سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قَدَّسَ الله روحه - يقول: (الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة)، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها"[(٢)].

٣- استشهاده - في معرض حديثه عن منزلة (المراقبة) - بقول لشيخه في سرور القلب بالله وفرحه بعبادته، حيث يقول: " ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل، وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، ومن لم يذقها فليرجع ويقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان...، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قَدَّسَ الله روحه - يقول: (إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور)، يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول"[(٣)].

---

(١) المصدر السابق، ج١/ ص٣٨٨.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ ص١٠.

(٣) المصدر السابق، ج٢/ ص٥١.

٤- ويُورد في بيان حقيقة (الاستقامة) المـذكورة في قولـه تعـالى ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ ﴾[1] ما سمعه من شيخ الإسلام أنه كان يقول: " استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة "[2].

٥- وفي تقريره للأمر الثاني الذي يستقيم به قلب السالك، وهو: تعظـيم الأمر والنهي، يستشهد بما سمعه عن شيخه في ذلك، حيث يقـول: "... ومـا أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي، وهو: (ألا يُعارضا بترخّص جافٍ، ولا يعارضا بتشديدٍ غالٍ، ولا يُحملا على علة توهن الانقياد)"[3].

٦- ويقرر في بيانه لفضائل الصبر أنه يورث صاحبه درجة الإمامة في الدين، استناداً إلى ما سمعه من شيخه أنه كان يقول: "بالصبر واليقين تُنال الإمامـة في الدين"[4].

٧- وفي بيانه – في منـزلة (الأدب) – لصور الأدب مع الله سـبحانه في الصلاة يستشهد بعدة أقوال سمعها من شيخ الإسلام، حيث يقول: "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول: (أَمَرَ الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال تعالى ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ ﴾[5]، فعلّق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه

(١) سورة الجن، الآية ١٦.

(٢) المصدر السابق، ج٢/ ص٧٩.

(٣) الوابل الصيب، ص١٣.

(٤) مدارج السالكين، ج٢/ ص١١٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٣١.

وأجملها في الصلاة)...، ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصـــره إلى السماء[1]، فسمعت شيخ الإسلام - قدس الله روحه — يقول: (هذا من كمال أدب الصلاة أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق)..، وسمعته يقول — في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود[2] —: (إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولى به)"[3].

٨- ويقرر في بيانه لفوائد الذكر: أن الذكر يورث حياة القلب، ويستشهد على ذلك بما سمعه من شيخ الإسلام أنه كان يقول: " الذكر للقلب مثل المـــاء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ "[4].

---

(١) فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : " ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟ ، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتـــهين عـــن ذلـــك أو لـــتخطفن أبصارهم". رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الأذان)، الباب (٩٢)، الحديث رقـــم (٧٥٠)، ج٢/ ص٢٣٣. وروى نحوه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتـــاب (الصلاة)، باب (النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة)، ج٤/ ص١٥٢.

(٢) فقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: " ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً " الحديث، كما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قـــال: " نهـــاني رسول الله ﷺ عن القراءة في الركوع والسجود ". صحيح مســـلم بشـــرح النـــووي، كتـــاب (الصلاة)، باب (النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود)، ج٤/ ص١٩٦، ١٩٨.

(٣) مدارج السالكين، ج٢/ ص٢٩٠.

(٤) الوابل الصيب، ص٨٥.

كما يقرر أن المداومة على الذكر تورث القوة للذاكر، ويستشهد على ذلك بأحوال شيخه من حيث القوة في المشيء والكلام والكتابة والإقدام بسبب مداومته على ذكر الله، حيث يقول: " إن الذكر يُعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً"(١).

٩- ويستشهد في تقريره للضابط الثاني من ضوابط قيم السلوك – وهو العبودية الخالصة لله تعالى – بقول شيخه: "من أراد السعادة الأبدية فليزم عتبة العبودية"(٢).

١٠- كما يستشهد في معرض حديثه عن الضابط الخامس – وهو تعلم العلم الشرعي – بقول شيخه: "من فارق الدليل ضَلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول"(٣).

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٥.

(٢) مدارج السالكين، ج١/ ص٣٢٦.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص٨٥.

الخاتمة

الخاتمة

أحمد الله عز وجل وأشكره وأثني عليه الخير كله على ما يسر وأعان سبحانه على إتمام هذا البحث. وفي ختامه أبين – بإيجاز فيما يلي – أبرز النتائج العلمية التي توصلت إليها فيه.

١- إن السلوك مع الله عند ابن القيم هو: سلوك الطريق إلى الله عز وجل، وذلك بتهذيب النفوس وتزكيتها وتطهير القلوب ومعالجة أمراضها، لتسعد بسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب.

وإن المراد بقيم السلوك مع الله : الصفات السلوكية الذاتية الخَيِّرة التي يقتضيها الشرع والعقل والفطرة في صلة العبد بربه، وعبادته إياه، وسلوك الطريق إليه سبحانه.

٢- إن ترتيب منازل السير إلى الله ليس باعتبار أن السالك يقطع المنزلة ويفارقها وينتقل منها إلى الثانية بعدها كمنازل السير الحسي، وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له، فبعض المنازل متوقف على بعض ومستصحب لبعضها، ومنها ما يندرج فيها جميع المنازل.

٣- إن التوبة مبدأ مقامات السالكين، وأول مراحل الطريق إلى الله، بل هي المدخل المفضي إلى ذلك الطريق، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية، وهي رجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان.

٤- إن التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه. ومنتهاها: الرجوع إلى الله في

المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته.

٥- إن النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها.

٦- إن الإنابة : الرجوع إلى الله ومحبته، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ .

٧- وتنقسم إلى قسمين :

الأول: إنابة لربوبيته سبحانه، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

الثاني: إنابة لإلهيته سبحانه إنابة عبودية ومحبة، وهي إنابة أوليائه. وتتضمن أربعة أمور لا يستحق السالك اسم "المنيب" إلا بها، وهي: محبته سبحانه، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

٨- إن المنيبين إلى الله على ثلاث درجات :

أ) فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ب)ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله.

ج) ومنهم المنيب إليه بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة فيه، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة.

وإن أعلى أنواع الإنابات وأفضلها: إنابة الروح لخالقها سبحانه.

٩- إن الخوف من أَجَلِّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهو فرض على كل أحد. وإنه لعامة المؤمنين، والخشية – وهي الخوف المقرون بمعرفة – للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين.

١٠-إنه على قدر العلم والمعرفة بالله، وبحسب القرب منه والمنزلة عنده يكون الخوف والخشية منه سبحانه.

١١-إن الخوف شرط في تحقق الإيمان ولازم من لوازمه، وإنه لا يصلح إلا لله وحده، وينشأ من ثلاثة أمور :

الأول: معرفة السالك بالجناية وقبحها.

الثاني: تصديقه الوعيد، وأن الله رتب على المعصية قبحها.

الثالث: أنه لا يعلم لعله يُمنع من التوبة ويُحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

١٢-إن القدر الواجب من الخوف: ما حال بين صاحبه ومحارم الله عز وجل، وهو الخوف الصادق المحمود، فإن تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. وإن ثمرته: الأمن التام الدائم في الآخرة.

١٣-إن أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها: أن الزهد ترك العبد ما لا ينفع في الآخرة، والورع: تركه ما يخاف ضرره في الآخرة. وأن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، وأن يكون في ثواب المصيبة – إذا أصيب بها–

أرغب منه فيها لو لم تصبه.

١٤- إن زهد المُشمِّرين في السير إلى الله نوعان :

النوع الأول: الزهد في الدنيا جملة، وذلك بإخراج الزاهد لها من قلبه بالكلية وإن كانت في يده.

النوع الثاني: الزهد في النفس، وهو نوعان أيضاً :

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن يُميت الزاهد نفسه، فلا يبقى بها عنده من القدر شيء، فلا يغضب ولا ينتصر ولا ينتقم لها، بل يبيح عرضها ويجعله في سبيل الله.

والثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها لله جملة، بحيث لا يستبقي منها شيء، ويزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبةُ محبوبه به.

١٥- إن الذي يصحح زهد العبد في الدنيا ثلاثة أمور :

الأول: علمه أنها ظل زائل وخيال زائر.

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجَلّ خطراً، وهي دار البقاء.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كُتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يُقضَ له منها.

١٦- إن الرجاء: هو الاستبشار بجود الله تبارك وتعالى وفضله والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. والفرق بينه وبين التمني: أن الرجاء يكون مع استفراغ الجهد والطاقة في الإتيان بأسباب الفوز والظفر. والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه.

١٧-إن الرجاء من أجلّ منازل السائرين إلى الله وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.

١٨-إن الرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه. ورجاء رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجاء رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

١٩-إن الرجاء يستلزم ثلاثة أمور: محبة ما يرجوه، وخوفه من فواته، وسعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

٢٠-إنه ينبغي على السالك الجمع بين مقامي الخوف والرجاء، وأن يُغلّب الخوف في حال الصحة، ويُغلّب الرجاء في حال دنو الأجل.

٢١-إن للرجاء فوائد كثيرة، منها :

أ) إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه ويستشرفه.

ب)أن الرجاء يطيب للعبد السير إلى الله ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته.

ج) أنه يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها.

د) أنه يبعثه على مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية وأعلى المقامات.

هـ) أنه مستلزم للخوف، فكل راج خائف.

٢٢- إن المراقبة: هي دوام علم العبد السالك وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.

٢٣- إن الإخلاص: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وتصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

٢٤- إن للإخلاص ثلاث آفات هي: رؤية العبد لعمله وملاحظته إياه، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

ولذا يُخلِّصه من رؤيته لعمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه.

والذي يُخلِّصه من طلب العوض على عمله: علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة.

والذي يُخلِّصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران :

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره في عمله، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأنه أضعف وأعجز وأقل من أن يفي بها لله على الوجه الأمثل والأكمل.

٢٥- إن الاستقامة كلمة آخذة بمجامع الدين، وتعني: القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، ووقوع الأفعال والأقوال والأحوال والنيات لله وبالله وعلى أمر الله.

وتكون بأمرين :

الأول: أن تتقدم محبة الله سبحانه عند العبد على جميع المحاب.

الثاني: تعظيم أوامر الله ونواهيه، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي.

٢٦-إن التوكل هو: الاستعانة، ويُمثل مركب السائر إلى الله الذي لا يتأتى له السير إلا به، ذلك أنه حقيقة العبودية، ومن لوازم الإيمان ومقتضياته، فمن لا توكل له لا إيمان له.

٢٧-إن العبد لا يستكمل مقام التوكل إلا بثمانية أمور:

الأول: المعرفة بالله سبحانه وصفاته.

الثاني: إثبات الأسباب والمسببات، والأخذ بالأسباب مع عدم الركون إليها وقطع علاقة القلب بها.

الثالث: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

الرابع: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه.

الخامس: حسن الظن بالله.

السادس: استسلام القلب له سبحانه وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته.

السابع: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته.

الثامن: الرضا بالقدر، وهو ثمرة التوكل وأعظم فوائده.

٢٨-إن الصبر: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش. وينقسم إلى: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله. كما ينقسم باعتبار متعلقه إلى: صبر على الأوامر والطاعات،

وصبر على المناهي والمخالفات، وصبر على المحن والأقدار والمصائب.

٢٩-وهو واجب بإجماع الأمة، ويُمثل نصف الإيمان، والنصف الآخر يمثله الشكر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

٣٠-وتتمثل فضائل الصبر في القرآن الكريم في الآتي :

الأمر به، والنهي عن ضده، وإيجابه سبحانه محبته للصابرين، وإيجابه معيته لهم، وإخباره بأن الصبر خير لأصحابه، وإيجابه الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، وإيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، وإطلاق البشرى لهم، وضمان النصر والمدد لهم، والإخبار بأنهم أهل العزائم، والإخبار بأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، والإخبار بأنهم إنما نالوا الفوز بالجنة والنجاة من النار بالصبر، وأن الصبر يورث صاحبه الإمامة في الدين، واقترانه بالإسلام والإيمان واليقين والتقوى والتوكل والشكر والرحمة والعمل الصالح.

كما تتمثل هذه الفضائل في السنة النبوية في الآتي :

اقتران النصر بالصبر، وأن الصبر نبراس ينير معالم الطريق، وتوفيق الله عز وجل الصابرين، وأن الصبر خير عطاء أعطيه المؤمن وأوسعه، وتعريف الإيمان بالصبر والسماحة.

٣١-وتتمثل الأسباب المعينة على الصبر عن المعصية في الآتي :

علم العبد بقبح المعصية ودناءتها، والحياء من الله عز وجل، ومراعاة نعم الله عليه وإحسانه إليه، وخوف الله وخشية عقابه، ومحبته، وشرف نفس العبد وزكاؤها وفضلها وأَنَفُتها وحميَّتها أن تفعل ما يحط من قدرها ويُحقِّرها، وقوة

العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها وضررها، وقصر الأمل، ومجانبة الفضول في المطعم والمشرب والملبس والمنام والاجتماع بالناس، وثبات شجرة الإيمان في القلب.

وتتمثل الأسباب المعينة على الصبر على الطاعة في الآتي :

معرفة الأسباب المعينة على الصبر عن المعصية، ومعرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، والإيمان والمحبة.

كما تتمثل أهم الأسباب المعينة على الصبر على المحن والمصائب في الآتي :

شهود جزائها وثوابها، وشهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها، وشهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مُقَدَّرة في أم الكتاب قبل أن يُخلق المبتلى فلابد منها، وشهوده حق الله عليه في تلك البلوى المتمثل في وجوب الصبر، وشهود ترتبها عليه بذنبه، وأن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقَسَمَها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، وأن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، وأن يعلم كذلك أن الله يُربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال.

٣٢- إن الذكر قوت قلوب السائرين، وسلاحهم الذي به يقاتلون قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل بينهم وبين علام الغيوب.

٣٣- وينقسم الذكر إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما،

وتنـــزيهه وتقديسه عما لا يليق به. وهو نوعان :

الأول: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر.

الثاني: الخبر عنه سبحانه بأحكام أسمائه وصفاته. وهو حمد، وثناء، ومجد.

القسم الثاني: ذكر أمره سبحانه ونهيه وأحكامه. وهو نوعان أيضاً :

الأول: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضى كذا.

الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه.

وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

٣٤- إن للذكر نحو مائة فائدة، منها: أنه يُرضي الرحمن ويطرد الشيطان، ويُزيل الهم والغم، ويُنور الوجه والقلب، ويجلب الرزق، ويزيل الوحشة، ويحط الخطايا، ويُورث الذاكر المحبة والمراقبة والإنابة.

٣٥- تنقسم المحبة إلى قسمين رئيسين: محبة نافعة، ومحبة ضـــارة. والمحبـــة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعـــين علـــى طاعـــة الله واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع أيضاً: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

ومحبة الله أصل المحاب المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها. والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها.

٣٦- ومن لوازم محبة الله :

أ) توحيد الله وإفراده بجميع أنواع العبادة.

ب) وموافقة الله في اتباع ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه.

ج) محبة القرآن الكريم والالتذاذ بسماعه.

٣٧- وتتمثل الأسباب الجالبة لمحبة الله في الأسباب العشرة التالية :

أ) قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه.

ب) التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

ج) دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال.

د) إيثار محابه سبحانه على محاب العبد.

هـ) مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها.

و) مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة.

ز) إنكسار القلب بكليته بين يديه سبحانه.

ح) الخلوة به وقت النـــزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

ط) مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

ي) مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

٣٨- تتمثل أهم ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن القيم في الضوابط الآتية :

أ) الإيمان بالله تعالى.

ب) العبودية الخالصة لله تعالى.

ج) الالتزام بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما.

د) متابعة الرسول ﷺ والاقتداء به.

هـ) تعلم العلم الشرعي.

و) الالتزام بأداء التكاليف الشرعية.

ز) اجتناب الذنوب والمعاصي.

٣٩-ومدار الإيمان بالله على أصلين :

أحدهما: التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ .

والثاني: طاعة أوامرهما.

ويتبع هذين الأصلين أمران هما :

- رد شبهات الباطل التي توحيها شياطين الجن والأنس في معارضة الخبر.

- ومجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وكمال الطاعة.

٤٠-إن العبودية المطلوبة من السائر إلى الله عبودية الطاعة والمحبة، لا عبودية القهر والملك والغلبة.

٤١-وللعبودية مراتب بحسب العلم والعمل.

أما مراتبها بحسب العلم فمرتبتان هما: العلم بالله، والعلم بدينه.

والعلم بالله خمس مراتب هي: العلم بذاته سبحانه، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان هما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. ودينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه.

وأما مراتبها بحسب العمل فمرتبتان هما: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

٤٢- إن الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ يكون بثلاثة أمور هي :

الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به الرسول بشيء من المعارضات الأربعة وهي: المعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الشرع، بحيث يظنه فاسد الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة ، لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله.

٤٣- إن الطريق إلى الله مسدود إلا لمن اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه.

٤٤- إن العلم الشرعي إن لم يصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، ومسدودة عليه كل سُبل الهدى والفلاح. وفَقْدُ العلم في السير إلى الله فَقدٌ لحياة القلب والروح.

٤٥- إن من فوائد العلم الشرعي للسالك: أنه يهذبه ويهيئه لسلوك طريق العبودية لله عز وجل، ويصحح همته، ويهديه إلى الغاية المقصودة له من سيره.

٤٦- إن من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد لله؛ فهو زنديق كافر بالله ورسوله.

٤٧- إن من أضرار المعاصي وآثارها القبيحة ما يلي :

حرمان العلم، وحرمان الرزق، ووحشة القلب، وظلمته، وهوان العبد العاصي على الله، وذلته، وفساد عقله، وضعف قلبه، وذهاب حيائه.

٤٨- تتمثل المصادر الأساسية لقيم السلوك مع الله عند ابن القيم في المصادر التالية :

أ) القرآن الكريم.

ب)السنة النبوية.

ج) الصحابة رضوان الله عليهم.

د) الزهاد والمتصوفة الأوائل.

هـ) الشيخ أبو إسماعيل الهروي.

و) شيخ الإسلام ابن تيمية.

٤٩- إن القرآن الكريم أصل الأصول والمصدر الأول والأساس للأحكام الشرعية عند ابن القيم، سواءً في مجال العقيدة، أم العبادة، أم الأخلاق، أم السلوك، أم غيرها من المجالات التي جاء الإسلام بتشريعها وتنظيمها.

٥٠- تتبوأ السنة النبوية المرتبة الثانية عند ابن القيم — بعد كتاب الله — من حيث الاستمداد منها والاحتجاج بها، وقد عُني كثيراً بها، وحافظ عليها محافظته على القرآن الكريم، ورأى استقلالها بتشريع الأحكام ووجوب العمل بها.

٥١- إن للصحابة رضي الله عنهم عند ابن القيم مقام سام جداً ومنزلة عالية رفيعة، فهم — في نظره — ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة. ولذا عُني بسيرهم، واستمسك بهديهم، واستمد من هذا الهدي قيم السلوك السوي في السير إلى الله تعالى.

٥٢-وقف ابن القيم من أهل التصوف عموماً ومن الهروي خصوصاً موقف أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكم - رحمه الله - للصحيح عندهم بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قَبِلَ ما عندهم من أقوال وأحوال توافق الكتاب والسنة، ورَدَّ ما خالفهما.

٥٣- كان لشيخ الإسلام ابن تيمية الأثر الإيجابي البالغ في تكوين ابن القيم العلمي، وفي تصحيح مساره العقدي، وتوجيه فكره، وتحديد منهجه وسلوكه، ولاسيما في ما يتعلق بمنازل العبودية لله عز وجل، فكان مصدراً مهماً من مصادره في تقرير هذه المنازل ومسائلها وقيمها.

٥٤-ونستنتج من كل ما سبق تميز منهج ابن القيم في قضية (قيم السلوك مع الله) عن مناهج أصحاب التصوف البدعي، الذين زعموا أن السالك منهم إذا سما في درجة القرب من الله سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغيرها، وحلّت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغيرها من الفواحش[1].

والذين فَرَّقوا بين الحقيقة والشريعة، حيث سمّوا علم الشريعة علم الظواهر، وسمّوا هواجس أنفسهم وأذواقهم ومواجيدهم علم البواطن أو الحقائق، وادّعوا أنهم أرباب الحقائق، وما سواهم من الفقهاء وغيرهم أرباب الظواهر، وأنهم

(١) مستدلين بقوله تعالى ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝﴾ [الحجر: ٩٩] مفسرين (اليقين) بأنه الكشف الصوفي.

يأخذون عن الله مباشرة بدون واسطة، وما سواهم يأخذون الظواهر بواسطة هي الرسول محمد ﷺ [1].

والذين حكّموا أذواقهم ومواجيدهم وأعرضوا عن العلم الشرعي معتقدين أنه يشغل السالك ويحول بينه وبين ربه[2]، واستجابوا لتلك الأذواق والمواجيد حتى أعطوها سلطة المشرع يأتمرون بأمرها وينتهون بنهيها ويقدموها على الشرع والعلم إذا وجدوا تعارضاً بينهما[3].

والذين يتعبدون الله بغير ما شرعه سبحانه، سواءً كان المتعبَّد به ليس مشروعاً في ذاته، كتعبدهم بالرياضات والأوضاع التي رسموها بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم[4]، أم كان المتعبَّد به مشروعاً في ذاته ولكنه ليس مشروعاً في الموضع الذي يؤدّونه فيه، كصلاتهم ركعتين بعد التوبة، أو كان المتعبَّد به مشروعاً في ذاته وهم يتركونه زهداً وورعاً، كقعودهم عن طلب

---

(١) ومما قالوه بهذا الشأن قول بعضهم: " نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت ". مدارج السالكين، ج٢/ص٣٥٠.

(٢) يقول أحدهم: " العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل "، ويقول آخر: " إذا رأيت الصوفي يشتغل بأخبرَنا وحدَّثنا فاغسل يدك منه ". المصدر السابق، ج٢/٣٥٠.

(٣) حيث يقولون: " إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع قَدَّمنا الذوق والوجد والكشف ". المصدر السابق، ج٢/ ص٥٣.

(٤) ومن ذلك: قعودهم جماعات للذكر والاقتصار فيه على ذكر الله بالاسم المفرد مُظهراً، وهو قول (الله، الله)، أو مُضمراً، وهو قول (هو، هو). وممن ناقشهم بهذا الشأن نقاشاً جيداً ورد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية. راجع: مجموع الفتاوى، ج١٠/ص٥٥٦ – ٥٦٧. ومختصر الفتاوى المصرية، ص٩٧، ط عام ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور – باكستان. والرد على المنطقيين، ص٣٥ – ٣٦، ط الثانية ١٣٩٦هـ–١٩٧٦م، إدارة ترجمان السنة، لاهور – باكستان.

الرزق والنكاح، اعتقاداً منهم أن ذلك زهدٌ وتقربٌ إلى الله عز وجل، فعطلوا سنة من سنن الله في الكون.

والذين يزعمون أن الفقر محمود لذاته ، وأنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية، وأن الفقراء أفضل من الأغنياء على كل حال(١).

والذين زعموا أنه يجب على السالك أن يخلو بنفسه في زاوية من الزوايا، وأن يقتصر على أداء الفرائض، وألا يُفرق فكره بقراءة قرآن ولا النظر في حديث ولا التأمل في تفسير، وينقطع عن علائق الدنيا بالكلية ويُفرغ قلبه منها ومن كل خاطر، مع تصفية الفكر للذكر وانتظار ما يُلقيه الله بعد ذلك في قلبه، وهو ما يسمونه بالكشف، حيث ينكشف له حينئذ – كما يزعمون – أمور كثيرة لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها(٢).

والله أسأل أن يصلح أمر آخر هذه الأمة كما أصلح أمر أولها، وأن يهب لنا من لدنه رحمة وعلماً ورشداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) راجع في هذا كلاً من: اللمع في التصوف – للطوسي، ص٤٧ – ٤٩، ط عام ١٩١٤م، مطبعة بريل – ليدن. والرسالة القشيرية – لأبي القاسم القشيري، ص٥٣٧، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ومحمود الشريف، ط عام ١٩٧٤م، دار الكتب الحديثة – القاهرة.

(٢) راجع في هذا كلاً من: إحياء علوم الدين – للإمام الغزالي، ج٣/ص١٩ – ٢٠، ط دار المعرفة، بيروت – لبنان. والمنقذ من الضلال – للإمام الغزالي، ص١٣٨ – ١٣٩، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، ط العاشرة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م، دار الأندلس – بيروت. وتلبيس إبليس – لابن الجوزي، ص٣٢٣، ط الثانية ١٣٦٨هـ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **ابن القيم من آثاره العلمية** – للدكتور أحمد ماهر البقري، ط عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية.

٣- **إحياء علوم الدين** – لأبي حامد الغزالي، ط دار المعرفة – بيروت.

٤- **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول** – لمحمد بن علي الشوكاني، ط الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٥- **أعلام الموقعين عن رب العالمين** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، ط عام ١٩٧٣م، دار الجيل – بيروت.

٦- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: مجدي فتحي السيد، ط دار الحديث – القاهرة.

٧- **بدائع الزهور في وقائع الدهور** – لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ط دار الشعب – القاهرة.

٨- **البداية والنهاية** – للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرين، ط الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الريان للتراث – القاهرة.

٩- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** - لمحمد بن علي الشوكاني، ط مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

١٠-**بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** - لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

١١-**تذكرة الحفاظ** - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢-**التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث** - للدكتور مصطفى حلمي، ط دار الدعوة - الاسكندرية.

١٣-**التعريفات** - لعلي بن محمد الجرجاني، ط الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الكتاب المصري - القاهرة، ودار الكتاب اللبناني - بيروت.

١٤-**تفسير القرآن العظيم** - لعماد الدين بن كثير، ط عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار المعرفة - بيروت.

١٥-**تقريب التهذيب** - للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط الأولى ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، دار الرشيد - حلب.

١٦-**التقريب لفقه ابن القيم** - لبكر بن عبد الله أبو زيد، مطابع دار الهلال - الرياض.

١٧-**تلبيس إبليس** - لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ط الثانية ١٣٦٨هـ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

١٨-**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** – لأبي عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكري، ط الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

١٩-**تهذيب التهذيب** – لابن حجر العسقلاني، ط دار صادر – بيروت.

٢٠-**الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، بدون ذكر الناشر.

٢١-**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** – لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط دار الكتاب العربي – بيروت.

٢٢-**الدارس في تاريخ المدارس** – لعبد القادر النعيمي، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٣-**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** – للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط دار الكتب الحديثة – القاهرة.

٢٤-**الذيل على طبقات الحنابلة** – لابن رجب الحنبلي، ط دار المعرفة – بيروت.

٢٥-**الرد على المنطقيين** – لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، إدارة ترجمان السنة، باكستان – لاهور.

٢٦-**الرسالة التبوكية** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: سليم الهلالي، ط الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، مكتبة الخراز بجدة، ودار ابن حزم ببيروت.

٢٧-**الرسالة القشيرية** - لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، ط عام ١٩٧٤م، دار الكتب الحديثة - القاهرة.

٢٨-**الروح** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد اسكندر يلدا، ط الثالثة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩-**روضة المحبين ونزهة المشتاقين** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: د. السيد الجميلي، ط الثامنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، دار الكتاب العربي - بيروت.

٣٠-**روضة الناظر وجنة المناظر** - لابن قدامة المقدسي، ط الثانية ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، مكتبة المعارف - الرياض.

٣١-**زاد المعاد في هدي خير العباد** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٢-**الزهد** - للإمام أحمد بن حنبل، ط الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٣-**سلسلة الأحاديث الصحيحة** - لمحمد ناصر الدين الألباني، ط عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

٣٤-**سنن ابن ماجه** - لأبي عبد الله محمد القزويني، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، ط مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

٣٥-**سنن أبي داود** – لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط دار إحياء السنة النبوية – القاهرة.

٣٦-**سنن الترمذي** – لأبي عيسى محمد الترمذي، ط عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٧-**سنن الدارمي** – لأبي محمد عبد الله الدارمي، ط عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار حديث أكادمي، باكستان – فيصل أباد.

٣٨-**سنن النسائي** – لأحمد بن شعيب النسائي، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٩-**سير أعلام النبلاء** – لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.

٤٠-**شذرات الذهب في أخبار من ذهب** – لابن العماد الحنبلي، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤١-**شرح الكوكب المنير** – لمحمد بن أحمد بن النجار الفتوحي، تحقيق: د. محمد الزحيلي، ود. نزيه حماد، ط عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة. وط مطبعة السنة المحمدية، بتحقيق: محمد حامد الفقي، عام ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م، القاهرة.

٤٢-**شرح مختصر الروضة** – لنجم الدين سليمان الطوفي، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٤٣-**الصبر والثواب عليه** - لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار ابن حزم - بيروت.

٤٤-**صحيح مسلم بن الحجاج القشيري بشرح يحيى بن شرف النووي.** ط دار الريان - القاهرة.

٤٥-**صفة الصفوة** - لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، ط دار الوعي بحلب .

٤٦-**صفحات مشرقة من حياة السابقين** - لنذير مكتبي، ط الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

٤٧-**طبقات الأولياء**-لأبي حفص عمر بن علي بن الملقن، تحقيق: نور الدين شريبة، ط الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، مكتبة الخانجي - القاهرة.

٤٨-**طبقات الحنابلة** - للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، ط دار المعرفة - بيروت.

٤٩-**طبقات الصوفية** - لأبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق: نور الدين شريبة، ط الثانية ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، مكتبة الخانجي - القاهرة.

٥٠-**الطبقات الكبرى** - للإمام محمد بن سعد، ط دار صادر - بيروت.

٥١-**الطرق الحكمية في السياسة الشرعية** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط عام ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، المكتبة العلمية - المدينة المنورة.

٥٢-**طريق الهجرتين وباب السعادتين** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار ابن كثير - دمشق.

٥٣-**عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار المعرفة – بيروت.

٥٤-**علم النفس الاجتماعي** – للدكتور حامد زهران، ط الرابعة ١٩٧٧م، عالم الكتب – القاهرة.

٥٥-**فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري** – لابن حجر العسقلاني، ط رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء – الرياض.

٥٦-**الفتح الرباني** – لأحمد عبد الرحمن البنا، ط دار الشهاب – القاهرة.

٥٧-**الفقيه والمتفقه** – للخطيب البغدادي، تعليق: إسماعيل الأنصاري، ط عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، دار إحياء السنة النبوية – القاهرة.

٥٨-**الفوائد** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: د. ماهر عبد الرازق وكمال الجمل، ط الثالثة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار اليقين، مصر – المنصورة.

٥٩-**فيض القدير شرح الجامع الصغير** – لعبد الرزاق المناوي، ط الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م، المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

٦٠-**القاموس المحيط** – لمجد الدين الفيروزابادي، ط الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٦١-**قيم الإسلام الخلقية وآثارها** – لعبد الله بن محمد العمرو، رسالة ماجستير مخطوطة مقدمة إلى قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٩هـ.

٦٢-**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار ابن خزيمة للنشر – الرياض.

٦٣-**كتاب الصلاة** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط الرابعة ١٤٠٧هـ، المكتبة القيمة – القاهرة.

٦٤-**الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية** – لعبد الرؤوف المناوي، ط مطبعة الزاوية التجانية – القاهرة.

٦٥-**لسان العرب** – لأبي الفضل جمال الدين بن منظور، ط الثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦٦-**اللمع في التصوف** – لأبي نصر السراج الطوسي، ط عام ١٩١٤م، مطبعة بريل – لندن.

٦٧-**مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين – مكة المكرمة.

٦٨-**مختصر الفتاوى المصرية** – لشيخ الإسلام ابن تيمية، اختصار: بدر الدين محمد بن علي الحنبلي، ط عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان – لاهور.

٦٩-**المختصر في أصول الفقه** – لأبي الحسن علاء الدين علي بن اللحام، تحقيق: د. محمد مظهر بقا، ط عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة.

٧٠-**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** – للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، ط الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٧١-**المستدرك على الصحيحين** – لمحمد الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٢-**مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط مؤسسة الرسالة – بيروت.

٧٣-**مع المسلمين الأوائل في نظرتهم للحياة والقيم** – للدكتور مصطفى حلمي، ط الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار الدعوة – الإسكندرية.

٧٤-**معجم البلدان** – لياقوت الحموي، تحقيق: فريد الجندي، ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٥-**المعجم الوسيط** – لمجمع اللغة العربية، ط الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، دار المعارف – القاهرة.

٧٦-**معجم مقاييس اللغة** – لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ط الأولى ١٣٦٨هـ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

٧٧-**مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** – للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٨-**ملامح الهوية التي ينبغي أن يتميز بها المسلم في حاضره المعاصر** - للدكتور مفرح بن سليمان القوسي، ط الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار إمام الدعوة - الرياض.

٧٩-**منازل السائرين** - لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي، تحقيق وتعليق: د. أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٨٠-**المنقذ من الضلال** - لأبي حامد الغزالي، تحقيق: جميل صليبا، وكامل عياد، ط العاشرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، دار الأندلس - بيروت.

٨١-**المنهج السلفي: تعريفه، تاريخه، مجالاته، قواعده، خصائصه** - للدكتور مفرح بن سليمان القوسي، ط الثانية عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مطابع الحميضي - الرياض.

٨٢-**موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم** - لمحمد أحمد سيد وآخرين، ط الأولى ١٤١٨هـ، دار الوسيلة - جدة.

٨٣-**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** - لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ط عام ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

٨٤-**الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب** - للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عون، ط السابعة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، مكتبة دار البيان - دمشق.

٨٥-**الوافي بالوفيات** – لصلاح الدين خليل الصفدي، ط الثانية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار النشر فرانز شتاينز بفيسبادن.

٨٦-**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** – لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار صادر – بيروت.

فهرس الموضوعات

فهـــرس المـوضـوعــات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

